مكتبة
الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الخاصة

محمود السعدنى

مسافر على الرصيف



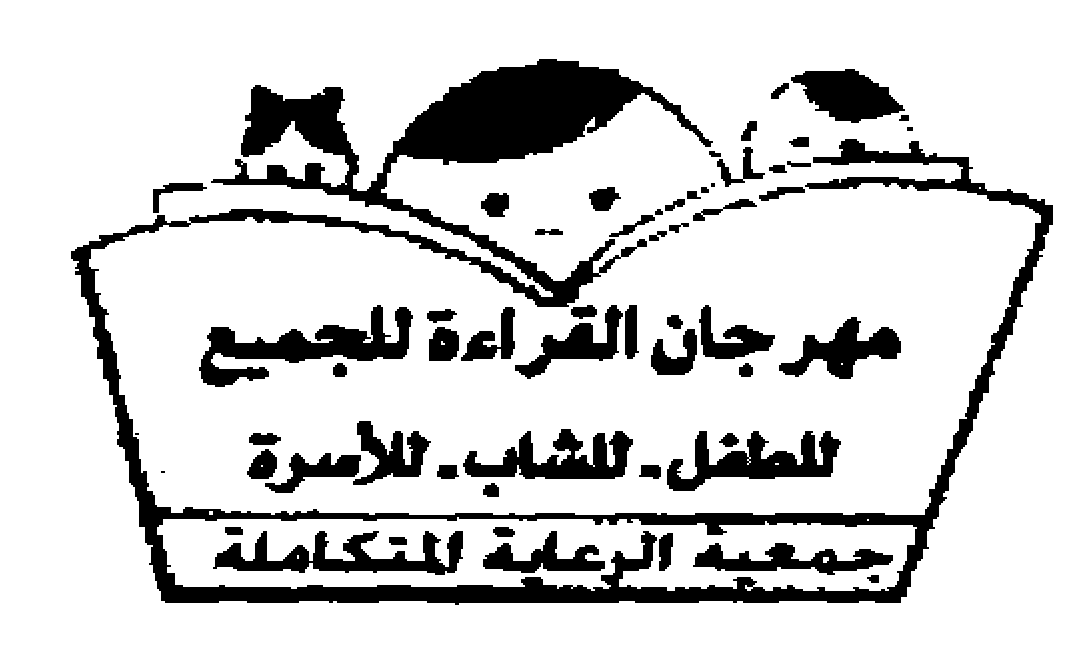
لوحة للفنان: بهجت

صرية العامة للكتاب

مسافر على الرصيف

مسافر على الرصيف

محمود السعدنى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

مسافرعلى الرصيف

محمود السعدنى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

مقدمة

□ أخوكم الحقير لله محمود بن عثمان بن محمد بن على بن السعدنى، الذى ينحدر من أصول يمنية ومن قبيلة على حدود صنعاء، والذى رحل جده الأول مع الفتح الإسلامى، ثم راقت له الحياة فى مصر فأقام فى الشرقية، ثم خلال سنوات القحط والجوع والاضطهاد، هاجر السعادنة من الشرقية إلى كل مكان، ولذلك ولهذا ولماذا أيضا ستجد السعدنى فى المنوفية وفى الغربية وفى الاسكندرية وفى الجيزة وستجد قبيلة السعدنى المصرية مذكورة فى كتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية منذ قرنين من الزمان!

ولكنى لا أظن أن أحدا من قبيلة السعدنى المصرية أو أصولها اليمنية قد داخ السبع دوخات كما داخ العبد لله، ولا

أعتقد أن سعدنيا آخر قد حصل له ما حصل للعبد لله. فأنا وحدى الذى داخ فى البلاد وجالس العباد، وصادفه حوادث وكوارث يشيب لهولها الغراب! وأنا وحدى من دون السعادنة الذى قطع رحلة حياته بلاد تحط وبلاد تشيل! وأنا وحدى قطعت بلاد العرب قرية قرية من طنجة وإلى مأرب وعلى بلاد الهند أنا مريت، وفى بلاد السند أنا أقمت وتمشيت، وفى اليابان أنا عشت تحت الشمس المشرقة وإلى جوار أفران المصانع المحرقة. وفى بلاد الأمريكان أنا لفيت من بافالو إلى سكرامنتو، وأحببت الأمريكان وتمنيت أن أعيش معهم أمارس هذه الحياة، فهم عرب أغنياء، أو هم عرب تصببوا عرقا ودما حتى صاروا أغنياء. وتمنيت أن نلف لفهم، وأن نمشى على دربهم، وأن نحقق فى خمسة قرون ما حققوه فى قرن واحد من الزمان! وفى القارة المحظوظة أوروبا أنا مسحتها من مجريط بالعربى التى هى مدريد باللاتينى، إلى برلين بالألمانى. ومن دبلن فى إيرلندا إلى لاهاى فى هولندا. وحكمة الله أن أهل إيرلندا هم عرب أيضا من بيروت ممكن، من الجزائر يجوز، من مصر لا مانع، ولكنهم وجدوا أنفسهم فجأة فى أوروبا، ولكن ماذا يفيد الجليد فى الدم الحار الذى يغلى فى العروق؟! وفى أفريقيا أنا نمت فى الغابات وسرحت فى البرارى، وعشت فى الجبال، ودخلت بيوت الأفارقة، وصليت فى جوامع مسلمين،

وخالطت جماعة من آكلة لحوم البشر، ولكن ما أطيب الجميع، وما أرق قلب الكل وما أقربهم إلينا، وما أشدهم عداوة على أعدائنا، وما أحرانا أن نلتفت إليهم، وأن نمد أيدينا لهم، وأن نمضى معهم فلهم نفس الغاية ويسلكون نفس الطريق! ولكنى أموت وفى نفسى شئ من حتى، لو ذهبت إلى قبرى قبل أن تكتحل عيناى برؤية بلاد الحب والموسيقى والثورة فى أمريكا اللاتينية! وأموت ناقص عمر لو انتهى الأجل قبل زيادة نيوزيلندا وأستراليا. فهذا الكوكب الذى نحيا عليه ماأصغره وما أجمله. وحرام أن نمر عليه دون أن نراه، وحرام أيضا أن نمضى عنه دون أن نستكمل فرحتنا عليه!

ولكن على طول ما لفيت ونطيت فى بلاد الله، أصارحكم بأن أعظم رحلاتى فى الحياة كانت بلا سفر، رحلة ساكنة ومستقرة وهادئة أو خاملة فى نظر البعض، رحلة قطعتها عبر سنوات طوال على مقعد فى مقهى بلدى فى الجيزة، هى قهوة عبدالله وعبدالله هذا رجل بلا شأن ولا ذكر ولكنه مثاب رغم أنفه فقد دخل التاريخ من أوسع الأبواب. وفى هذا المقهى الذى كانت أنواره باهتة ومقاعده مهشمة ورصيفه أعرض من حظه، وشهرته أوسع من مساحة الميدان الذى كان يطل عليه. فى هذا المقهى التقيت بعشرات الأدباء والشعراء والفنانين، بعضهم تتلمذت على

يديه، وبعضهم زاملته، وبعضهم تأستذت عليه إن صح هذا التعبير! نماذج من البشر قل أن يجود الزمان بمثلهم. ونادرا ما يجتمعون فى زمان واحد. ولكن - وهنا المعجزة - جاد الحظ بهم وفى وقت واحد! واجتمعوا طويلا، ثم انفضوا جميعا، بعضهم اختطفه الموت، والبعض هرسه الزمن الغادر، وبعضهم طرده الجحود والنكران، ولكنهم جميعا من زبدة مصر، وجزء من سحرها، وقبس من روحها، وحفنة من ترابها، وهم فى النهاية مصر نفسها، وبدونهم ربما لا تكون مصر!! وأسماء لمعت وأسماء انطفأت وحظوظ طقطقت وحظوظ اندثرت، وبهم نشبت معارك ولا معركة البسوس، وبسببهم تحقق الخلود لأيام ولا يوم داحس والغبراء. وبفضلهم خرج من هذا المقهى الصغير الحقير شعاع من النور هو نفسه جزء من النور العام الذى يشع فى مصر كلها! وحكمة الله أن رواد المقهىَ من الأدباء سلكوا طرقا مختلفة ولكن إلى غاية واحدة. وأغرب شىء أنهم جميعا هاموا حبا بمصر، ولكن أحدا منهم لم يفز بها!! مجانين جميعا ومصر ليلاهم. وعناترة كلهم ومصر عبلاهم! أسماء لها فى مصر تاريخ، ولها فى التاريخ مكان سيظل محجوزا لهم. ونماذج لن تتكرر، وشخصيات كان يكفى أن تأتى واحدة منها فى كل عصر لتزينه وتبهجه وتنشر النور والضياء والبهاء. أنور المعداوى، وزكريا الحجاوى، ومحمود

حسن إسماعيل، وعبدالقادر القط، وعبد الرحمن الخميسى، وزهدى الرسام، ونزار قبانى، والشيخ عبدالحميد قطامش، ونعمان عاشور، ومحمود يوسف، ومحمود شعبان، والدكتور عباس الشيخ، والشيخ كامل أبو العينين، وعبد العليم عيسى، وأنور فتح الله، وعبدالرحمن العيسوى، والدكتور محمد كامل حسين، وشفيق الكمالى، والشيخ محمد الفيومى، وعدنان الراوى، وأديب نحوى، وهاشم السمان. وكان هذا جيل، ومن بعده جاء جيل آخر. وجاءوا تلاميذ فى البداية، ثم دخلوا فى القافلة وأصبحوا أساتذة بعد ذلك. يوسف إدريس، وصلاح عبدالصبور، والشاعر أحمد حجازى، وصلاح جاهين، والفنان حسن فؤاد، وأبو المعاطى أبو النجا، وأحمد عباس صالح، وعلى الغندور، ورجاء النقاش، ويوسف الحطاب، وفوزى درويش.

وكانت سياحتى فى قهوة عبدالله هى أهم سياحة فى العمر، وكانت رحلتى خلالها هى أطول رحلاتى، فقد امتدت عشر سنوات كاملة تنقلت فيها خلال هذه الجزر الخصبة والصحراوات المجدبة. ولكنها بخيرها وشرها كانت حياة حافلة وجامعات كبرى للفلسفة والتاريخ والمنطق والفن والأدب والشعر والموسيقى، وفن النكتة وعلم الحديث والكلام!

وعلى هذه الصفحات سيقوم أخوكم الفقير لله محمود بن عثمان بن محمد بن على بن السعدنى بجرد الذاكرة لاستجلاب آخر نقطة فيها عن فرسان ذلك الزمان، فقد كانوا ملح الأرض وزبد الحياة، وكانوا جزءا من روح مصر وقطعة من عقلها، وأشاعوا المرح والحب، وعلموا الأجيال فنون الصياغة الرفيعة والأدب العظيم، وشقوا طريقهم فى الحياة وكل منهم يحمل فى يده شمعة، بعضها له ضوء باهر، وبعضها انكسر ضوؤه فأصبح يشع دخانا أكثر مما يشع نورا! وبعضها انطفأت شعلته بفعل العواصف والرياح! ولكن الذى لا شك فيه ولا ريب فيه أن كلا منهم اعتصر نفسه حتى النخاع،وأدى دوره بالقدر الذى استطاعه، وكانت النيات حسنة، وإن كانت بعض الأعمال ليست على ما يرام! وإن البعض لقى جزاء سنمار والبعض الآخر تأبط شرا، والبعض الآخر ضاع فى زحام السوق الذى استولى عليه الأرزقية والأغوات. ولكن بعضهم استطاع رغم المحن والأحن أن ينتزع مكانه تحت الشمس وأن يضىء بالرغم من كل شىء، وأن يدخل التاريخ بالرغم من الأسوار العالية والأقفال المحكمة. ولكن يبقى أنور المعداوى هو شهيد المقهى والمرحلة، وهو ضحية الشموخ والكبرياء، وهو النموذج الذى لم تتلوث يده، والبطل الذى عفا عند المقدرة، وعف عند المغنم! وفى المقابل يأتى نموذج الدكتور عباس الشيخ الذى

احترق عند البداية، واشتعل رأسه شيبا وهو لم يزل شابا، واشتعل عقله جنونا وهو غاية فى الرزانة والكمال! واكتفى من الحياة بالفرجة والصمت، ثم مضى فجأة فى هدوء وكأنه لم يمر قط على هذه الحياة!

وأرجو من الله ولا يكثر على الله ألا يميل بى الهوى أو يميل بى القلم، وأن يوفقنى إلى ما يرضى الحقيقة ويرضاه. وإذا سقطت أسماء أو ضاعت فى زحام الذاكرة أحداث، فأرجو أن يغفر لى الموتى وأن يسامحنى الأحياء، فليس مثل السن له أحكام. والشيخوخة لها رغاوى تصبها على العقل العجوز، وتدفع بالذكريات إلى الانزلاق عليها لتسقط فى هاوية النسيان!

ولكن ما يطمئننى أن تجاربى السابقة تؤكد أنه لا يبقى عالقا بالذاكرة إلا ما يستحق الذكر. ولا يمكث فى العقل الباطن إلا ما ينفع الناس.

العبد لله

أنور المعداوى ومحنة العصر

يبدو أن المعارك العنيفة التى خاضها جمال عبدالناصر فى بداية حكمه ضد الأعداء فى الداخل وفى الخارج، لم تدع مجالا للقائد لرعاية الكتاب والأدباء!

بالطبع كان هناك أدباء وكتاب يحتلون موقع الصدارة، ولكن هؤلاء كانوا فى موقع الصدارة دائما. فهم الأدباء والكتاب الرسميون فى كل عهد، وهم كانوا يتمتعون بنفس الحظوة أيام الملك فاروق، وظلوا يتمتعون بها أيام جمال عبدالناصر. ولكن غير هؤلاء الأدباء الرسميين لم يستطع أحد آخر أن ينفذ من الحصار المضروب إلا فى النصف الثانى من الستينات. ولكن قبل هذا التغيير النوعى كان معظم الأدباء غير الرسميين قد حلوا ضيوفا على السجون الحربية والمدنية، وبعضهم ذاق التشرد والفصل من الوظيفة، وكان أنور المعداوى واحداً من هذا الصنف الأخير!

ولكن مأساة أنور المعداوى ستظل فريدة فى تاريخ المآسى لأن أنور المعداوى لم يكن ضد الثورة، ولم يكن ضد جمال عبدالناصر، ولكنه كان ضد نوع من الأدباء احتلوا القمة فى الساحة الأدبية، وهم فى الأصل كانوا ضباطا فى القوات المسلحة، ثم اعتزلوا السلك العسكرى واحترفوا العمل الأدبى، وأصبحوا هم مندوبى القيادة.. فى الشعر والأدب والفن! وكان «س» هو عميد هؤلاء الأدباء، فهو لواء بالجيش، وقائد بسلاح الفرسان، وهو كان يمارس كتابة القصة قبل الثورة، وهو كان يمارسها من باب الهواية ولشغل أوقات الفراغ!

ولكن بعد الثورة اندفع فجأة إلى الصدارة، وصار واحدا من الكتاب الرسميين، وأصبح رئيسا لنادى القصة، وسكرتيرا عاما للمجلس الأعلى للآداب والفنون، وسكرتيرا لنادى الأدباء!

ولقد تحمل أنور المعداوى واتسع صدره لكل هذا الذى حدث. وكان من الممكن أن يتحمل إلى النهاية، لولا أن «س» أصبح فجأة وبقدرة قادر رئيسا لتحرير مجلة «الرسالة»! ولأنور المعداوى علاقات وثيقة وتاريخية وعاطفية بمجلة «الرسالة» القديمة. فقد كان واحدا من أبرز كتابها، وكان هو أول من سلط الضوء فيها على أشعار نزار قبانى، وكان أول من بشر على صفحاتها بأدب نجيب محفوظ!

وكانت مجلة «الرسالة» القديمة التى كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات هى أعظم وأرقى المجلات الأدبية فى الوطن العربى. وكان لا ينشر فيها غير إنتاج كبار الكتاب والأدباء والشعراء، وأصبحت

بمرور الزمن مدرسة تربى فيها جيل كامل من الأدباء من طنجة إلى حلب. ثم اضطرت المجلة إلى الاحتجاب فترة من الزمن.

وعندما عادت «الرسالة» إلى الصدور فى بداية الخمسينات، كان شكلها وإنتاجها يعبر عن التغيير الذى طرأ على الحركة الأدبية فى مصر. كانت من حيث الشكل تنافس مجلة «الكواكب»، ومن حيث المضمون كانت نسخة مكررة من مجلة «آخر ساعة»، مع فارق بسيط هو أن مجلة «آخر ساعة» يحررها صحفيون محترفون، بينما مجلة «الرسالة» يتولاها هواة لا خبرة لهم ولا حيلة. كان «س» الضابط السابق يرأس تحريرها، و«ص» الضابط المتقاعد يشرف على إدارة التحرير، بينما يتولى تحريرها نفر من أشباه الكتاب الذين حاولت الأجهزة فرضهم على الحركة الأدبية! وكانت هذه أكبر ضربة وجهت إلى أنور المعداوى. هب كالإعصار يهاجم مجلة «الرسالة». وبالطبع هاجم «س» وبطانته. هاجمه كأديب، ولكن «س» اعتبر الحملة موجهة ضده كمندوب للقيادة. ولما كانت المعركة غير متكافئة بين أنور المعداوى وسلاح المدرعات، فقد آثرت أن أتدخل فى الموضوع لإصلاح ما يمكن إصلاحه. وبالفعل رتبت موعدا بين «س» وأنور المعداوى، وكان «جروبى» عدلى باشا مكان اللقاء، وأبدى «س» رغبته فى أن يتولى أنور المعداوى إدارة تحرير «الرسالة» بدلا من «ص». وقبل أنور المعداوى ولكن بشروط. ولم يفصح عن هذه الشروط ولكنه وعد بالكشف عنها عند لقائه بالسيد «س».

كان اللقاء فى الخامسة بعد الظهر فى «جروبى» عدلى باشا كما قلت وذهبت أنا فى الخامسة إلا ربعا وجلست أنتظر. وفى الخامسة تماما وصلت سيارة حربية ترفع علم القيادة، ونزل منها الأديب «س» فى ملابس جنرال. ورحنا نتجاذب الحديث لمدة ساعة ولم يظهر أى أثر لأنور المعداوى. وفى السادسة والربع أهل علينا بقامته السامقة وكبريائه المعهود، واعتذر عن التأخير لارتباطه بموعد سابق مع «فلاح من بلدنا». ورمقنى «س» بنظرة حادة وكأنه يقول «عذر أقبح من ذنب». وبلع «س» الإهانة وواصل الحديث بهدوء مع أنور المعداوى. وعرض عليه إدارة تحرير مجلة «الرسالة». ووافق أنور بشروط. ولكن الشروط كانت أكثر مما يحتمل «س». كان أول شرط هو فصل جميع المحررين الذين يعملون بها. وكان أخر شرط هو عدم نشر الكلام الفارغ الذى ينشره «س». وانتهت الجلسة إلى لا شئ.

وافترقنا. «س» إلى مجلة «الرسالة» وأنور المعداوى وأنا إلى قهوة عبدالله. وفى الطريق سألنى أنور المعداوى عن رأيى فى الحديث الذى دار، وقلت له بصوت خفيض: لا بأس بالحديث، ولكنى أعتقد أنه سيكون بداية المتاعب. وقال أنور وهو يهز رأسه الكبير: مرحبا بالمتاعب! ولكن الذى حدث بعد ذلك لم يكن من نوع المتاعب. بل كان من نوع المصائب. أطيح بأنوار المعداوى ففصل من وظيفته بطريقة خبيثة، وانقطع صرف مرتبه، وضيقوا الخناق عليه فلم يعد يستطيع أن ينشر حرفا من إنتاجه ومع ذلك لم يهدأ أنور المعداوى، ولم يستسلم، ولم يهادن. استعان على مواجهة مطالب الحياة بمعونة مالية من صديقه

الأديب الطبيب محمود شعبان – وهى قصة سنتعرض لها بالتفصيل فيما بعد – وقد لجأ إلى القضاء عارضا القضية بكل أبعادها أمام المحاكم. ولكنه بالرغم من المحنة والصدمة، لم يتخلف يوماً واحدا عن مكانه فى قهوة عبدالله. ولم يقطع صلته بالندوة بالرغم من وجود عدد من مندوبى السلطة والمخبرين كل ليلة. ولم يتوقف عن إبداء رأيه فى الحال السيئ الذى انتهى إليه الأدب فى مصر. وطال الزمن بالقضية أمام المحاكم، ثم صدر الحكم بإنصاف أنور المعداوى وإعادته إلى وظيفته. ولكن الجهاز البيروقراطى المدرب نفذ حكم القاضى، وضاعف من غيظ أنور المعداوى. فقد كان أنور يعمل مستشارا بالمكتب الثقافى بوزارة التربية والتعليم، ولكنهم أعادوه بوظيفة مدرس بمدرسة ابتدائية مغمورة فى حى من أحياء القاهرة المعزية. وكانت الضربة شديدة هذه المرة. ولم يحتمل أنور القوى.. فقد أدركه ضعف الإنسان الفرد أمام جبروت الحكومة. وأنه لا مناص أمام الإنسان الفرد من الركوب فى عربة النظام. أو مرور العربة على جثته. فاستقال أنور من الوظيفة، وبدأ صراعه مع المرض الرهيب الذى قضى عليه!

ولم تكن هذه قصة حياة أنور المعداوى، ولكنها قصة نهايته، أردت أن أبدأ بها ليعلم القراء كيف مات ناقد لم تنجب مصر من طرازه إلا عددا أقل من أصابع اليد الواحدة.؟! وكيف انتهت حياة مفكر عظيم لو أتيحت له الظروف المناسبة لترك فى مصر أثرا ربما فاق الأثر الذى تركه العقاد.؟! ولكنها الظروف السياسية التعيسة حين تفرض على السلطة أن تؤثر الولاء الأعمى على النصيحة الخالصة. وأن تقبل

بالذيول وترفض الأنداد. وأن تطرد أهل الخبرة لتحل محلهم أهل الثقة! وأن تحجب عن القراء قلم أنور المعداوى، بينما تطلق العنان لأقلام استخدمت أغلب الوقت فى كتابة تقارير كاذبة!

إنها ليست محنة أنور المعداوى، ولكنها محنة العصر. وهى مأساة تتكرر كثيرا ولكن أحدا لا يستفيد منها، ولا أحد يتعظ بها. لأنه هكذا الحياة، اعملوا فكل ميسر لما خلق له!!

***

وأغرب شئ أننى عندما رأيت أنور المعداوى لأول مرة فى حياتى على قهوة محمد عبدالله، حسبته ضابطا بالقوات المسلحة. فقد كان طويل القامة متين البنيان رافع الرأس على الدوام. ولم يكن وحده حين رأيته أول مرة، ولكن كان بصحبته صديقان قدر لهما أن يشتهرا فيما بعد. أحدهما كان يساريا اشتغل بالسياسة فى البداية ثم طلق يساريته نهائيا بعد أن ذاق مرارة السجن، واحترف الصحافة فى النهاية ومات مقهورا، فقد كانت نهايته عكس بدايته، وكان سلوكه عكس معتقداته، وذهب دون أن يترك أثرا فى حجم موهبته!

والآخر كان إشتراكيا إسلاميا، واشتهر بعد ذلك كأحد زعماء جماعة الأخوان المسلمين، ثم قدر له أن يدفع حياته ثمنا لكتاب أصدره فى الستينات هو «معالم الطريق»، وبالرغم من غيابه عن دنيانا كل هذه السنين، إلا أنه لايزال يعتبر الأب الروحى لكل الجماعات الدينية المختلفة التى ظهرت فى مصر وربما فى العالم الإسلامى! كان الأول

هو «ر» وكان الرجل الآخر هو سيد قطب. وكان الثلاثة يجلسون فى قهوة عبدالله، وكان الحديث بينهم يدور حول مجلة جديدة فى طريقها إلى الصدور، هى مجلة «الفجر الجديد». الغريب أن الثلاثة تجرعوا الموت قهرا وإن اختلفت الوسائل. لقد اكتشف «ر» أن الكفاح طريق ليس له نهاية فآثر أن يبتعد، وارتاد طريقا آخر هو طريق أكل العيش. ولكنه اكتشف بعد فترة أنه كسب عيشه وخسر موهبته! وكانت النتيجة الإحساس بالقهر والمرارة ثم الموت بعد ذلك. وكان موته الأدبى قد سبق موته الرسمى بفترة طويلة.

وكان سيد قطب نموذجا يختلف كل الإختلاف عن «ر» اكتشف منذ البداية أن الطريق الذى يسلكه يؤدى إلى السجن وإلى القتل، فأسرع الخطى على الطريق الذى اختاره، وعندما صعد على حبل المشنقة أدرك أن طريقه المادى قد انتهى ليبدأ طريقه اللانهائى، وهو الذى أدى به إلى الخلود وإلى الأبدية! وكان أنور المعداوى نموذجا ثالثا لم يكن سلبيا متعايشا مع الظروف مثل «ر» ولم يكن فدائيا كسيد قطب رفض الخضوع مع العيش الناعم، ورفض الثورة حتى الموت. وعندما اكتشف أن قوى البطش أعتى وأعنف، انفجر فى داخل نفسه شىء ما، ولم يلبث أن قاطع الحياة كلها ومات.

ولعل هؤلاء الثلاثة هم مصر كلها فى تلك الفترة. ولن تجد بين طائفة المثقفين نماذج خارج هذا المثلث: «ر»، المعداوى، سيد قطب!

وقد يقول قائل، هناك نماذج أخرى انسجمت أهدافها مع أرازقها، فعملوا وأنتجوا ولمعوا فى كل عهد، وتضخموا وتضخمت أرصدتهم فى كل وقت!

وأجيب هؤلاء بأننى أتكلم عن طبقة المثقفين ولأن الثقافة ليست معلومات ولا هى حرفة ولا هى فهلوة أو عملية تفتيح عين. ولكن الثقافة هى وجهة نظر، وهى موقف، وهى طريق يختاره المثقف ويكون مستعدا لأن يدفع حياته ثمنا له! ولقد كان هؤلاء الثلاثة من خيرة المثقفين فى مصر. كان «ر» من أهالى البر الشرقى فى الصعيد، وهى أفقر منطقة فى مصر وربما فى العالم. وعندما تخرج فى كلية الآداب كان قد وضع كتابه عن «الأدب الشعبى» هو العمدة حتى الآن فى هذا المجال. وهو المرجع الوحيد عند علماء الغرب عن الفن الشعبى المصرى الحديث. ومن خلال هذا الكتاب كان «ر» قد حدد موقفه تماما من الأشياء والناس وصراع الحياة. ولقد ساقه هذا الموقف إلى السجن، فقضى خلف أسواره عدة سنوات كانت كفيلة بتغييره من الضد إلى الضد. وعندما اجتاز بوابة السجن كان شخصا آخر هو الذى خرج. واضطر من شدة الخوف أن يؤلف كتبا ضد رفاق الطريق السابقين. وأن يقاطع شلة شبابه المبكر. حتى قهوة عبدالله لم يعد يتردد عليها. وفى النهاية قطع صلته بأقرب الناس إليه، ولم يشاهده أحد خارج دائرة عمله مدة عشرين عاما متصلة!

سيد قطب كان شيئا آخر يختلف.

كان إشتراكيا إسلاميا ومع ذلك لم يتردد لحظة فى أن يشارك «ر» فى إصدار مجلة ضد حكومة ذلك الزمان! وكان يختلف عن كل الذين يجالسهم فى قهوة عبدالله، ويختلف معهم، ولكنه أبدا لم يقطع حبل الود بينه وبينهم. كان يحب الجميع ويحترم الجميع أيضا، وبالرغم من مشاغله الكثيرة كان حريصا على التردد على قهوة عبدالله بين الحين والآخر. لم ينقطع عنها إلا بسبب سجنه.. وعندما غادر سجنه كانت القهوة قد زالت من مكانها! بل لقد حرص خلال فترة سجنه الطويل على أن يسرب خطابا من خلف الأسوار إلى صديقه أنور المعداوى. بعكس «ر» الذى استوقفته ذات مرة فى الشارع وأبلغته بأن المرض قد اشتد على أنور المعداوى، وأنه فى طريقه إلى الموت. عندئذ نظر إلى «ر» بلا مبالاة وقال فى هدوء «ما احنا كلنا عيانين ياعم سعدنى» ولم يزد حرفا بعد ذلك!

وإذا كان سيد قطب قد مات شهيدا، و«ر» قد مات ضائعا، فإن أنور المعداوى كان يقف فى المنتصف تماماً بين «ر» وسيد قطب. فهو لم يكن من طبقة الشهداء، كما أنه لم يكن من النوع الذى يأكل عيشه بالجبن، لذلك مات مقهورا وانفجرت شرايين دماغه من شدة الغيظ. ولكنه حتى برغم المحنة لعب دورا رئيسيا فى حياة الجيل الذى سبقنا والجيل الذى ننتمى إليه. ذات مساء كانت القهوة عامرة بنخبة من الأدباءوالشعراء والفنانين. وكان زكريا الحجاوى يتحدث عن مجلته الجديدة «الميزان» التى فى طريقها إلى الصدور! وراح زكريا الحجاوى يتحدث بحماس عن الواقعية الجديدة التى سترفع شعارها مجلة

«الميزان». وفى النهاية طلب من جميع الحاضرين أن يساهموا فى المجلة بأقلامهم وإنتاجهم. ثم خص أنور المعداوى برجاء أن يكتب إفتتاحية «الميزان». ولكن أنور المعداوى أبدى فتورا شديدا واعتذر بحسم، ووعد زكريا بالتفكير فى الأمر بعد صدور المجلة. وبعد أيام تقدمت بأصول قصة قصيرة لتنشر فى «الميزان». وانتظرت على نار موعد صدور المجلة. فلما صدرت أصابنى إحباط شديد فقد خلت صفحاتها من قصتى، وكانت بعنوان «الواعظ»، وهى عن واعظ كفيف مهمته إلقاء خطبة الجمعة فى مسجد ليمان طره الرهيب، ولم يكن يؤم مسجد الليمان إلا المحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة. وبالرغم من ذلك لم يخرج الواعظ الضرير عن خطبة واحدة كان يكررها كل أسبوع، وكانت عن مناسك الحج إلى بيت الله الحرام، وشروط الزكاة!!! وزاد من همى أننى قرأت بحثا فى «الميزان» منشورا على ثمانى صفحات للأستاذ بكر الشرقاوى، وبالرغم من كل الجهد الذى بذلته لم أفهم حرفا واحدا من البحث المنشور! وشعرت بأننى لست أديبا ولن أكون!! لأن كلامى مفهوم يفهمه أى طفل وأى إنسان ولو كان حظه يسيرا من التعليم! وقلت لنفسى هذا هو الأدب الصحيح. لا يفهمه إلا الأديب الذى كتبه وربما حلقة ضيقة من الكتاب والادباء. كان البحث حافلا بتعبيرات من نوع «الإستبطان الإستغلاقى والشواشى العليا للبرجوازية الكومبرادورية التى تحقق مصالح طفيلية من أجل ضرب النمو الأستاتيكى والديناميكى على السواء»!! وفى المساء كنت أجلس حزينا مهموما على قهوة محمد عبدالله، وحين جاء أنور المعداوى أدرك أننى مهموم وإن كان لم يدرك

السبب. وعندما سألنى عما إذا كنت قد قرأت الميزان، أجبته بنعم، ونطقتها بأسى شديد. وراح أنور المعداوى يبدى رأيه فى مجلة الميزان. وانزاح همى كله عندما اكتشفت أن أنور المعداوى - وهو أديب لا شك فى ذلك - لم يفهم هو الآخر حرفا واحدا من بحث بكر الشرقاوى. كما أن المجلة بلا هوية وبلا اتجاه.. كما أن كتابها.. أقل من المستوى وبعضهم لم ينضج على الإطلاق!! وشكوت لأنور المعداوى ما حدث لقصتى واستبعادها من النشر! وطلبها أنور المعداوى وبعد أن قرأها وضعها فى مظروف وكتب بضعة سطور لصاحب مجلة أدبية شهيرة تصدر حتى الآن فى بيروت! وقلت له: بيروت!؟ مستحيل. إنهم لم يسمعوا باسمى قط فكيف سينشرونها؟ وابتسم المعداوى وقال فى هدوء: بل سينشرونها.. أولا لأنها قصة جيدة، وثانيا لأننى قدمتك إليهم! ولا أستطيع الآن أن أصف مدى سعادتى حين اشتريت نسخة من مجلة الآداب لأكتشف أن قصتى التى رفضت «الميزان» نشرها، منشورة فى «الآداب» وكانت أكثر المجلات الأدبية احتراما فى الوطن العربى. وهذا الموقف الذى اتخذه أنور المعداوى منى، تكرر كثيرا فى حياته القصيرة. أدباء مغمورون لم يسمع بهم أحد، وكتاب يزحفون فى سراديب عالم الأدب، أخذ أنور المعداوى بيدهم إلى عالم الأضواء، ولم يكن له شروط إلا أن يكون الكاتب واعدا ومبشرا وموهوبا بحق. وأما الآخرون فلم يكن يسخر منهم، ولكنه كان يتجنبهم فقط، وأحيانا كان يسدى لهم النصيحة فى لين شديد، وفى حب أشد! مرة واحدة فقط، ضبطت أنور المعداوى فى موقف حاد نوعا ما تجاه أحد الأدباء. كان الأديب إياه ثقيلا ويفرض

إنتاجه على الآخرين دون مراعاة لظروف وأحوال الجالسين! ذات مرة جاء وجلس معنا فى القهوة، ثم راح يحدثنا عن قصيدته الجديدة العصماء. وكيف ستحدث هزة فى عالم الشعر والأدب. ثم استأذن الحاضرين فى أن يسمعهم القصيدة، ورد أنور المعداوى بهدوء «بلاش دلوقت، خصوصا إن عندى صداع ودماغى مش رايقة»! ولكن اعتذار أنور المعداوى الرقيق لم يقنع الأستاذ الشاعر، وفجأة سحب قصيدته من جيبه، وراح يخطب على طريقة خطباء الأسواق، وعندئذ هب أنور المعداوى واقفا كمن لدغته عقرب، وقال وهو يسرع الخطى «عن إذ نكم أنا ورايا ميعاد»!.

وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التى رأيت فيها أنورحادا على نحو ما!

□□

الناقد .. القط!

كان الدكتور عبد القادر القط أحد مؤسسى ندوة «قهوة عبدالله» .. وكان لقبه العلمى بالإضافة إلى منصبه كأستاذ بجامعة القاهرة يضفى عليه سحرا خاصا. وكان بالإضافة إلى وسامته وعنايته بهندامه أطيب أعضاء الندوة قلبا، وأقلهم طموحا، وأكثرهم تواضعا ورغبة فى مساعدة الآخرين. وكان يقضى بعض الوقت فى مناقشة الأدباء الموجودين، ثم يستغرقه لعب الطاولة بعد ذلك، كما أنه على عكس أنور المعداوى وزكريا الحجاوى، كان من هواة لعبة كرة القدم، وكان حريصا على مشاهدة مبارياتها! ولو أن عبد القادر القط كان حريصا على دخول سوق الأدب لكان له شأن آخر، فقد كان فى وقت من الأوقات أحد ثلاثة نقاد مسموعى الكلمة فى مصر بعد الدكتور مندور والدكتور لويس عوض،

ولكن بعض النقاد الموسميين مثل الناقد «...» الذى استطاع أن يحتل مساحة فى تاريخ النقد العربى أكبر من حجمه، وهو لم يصل إلى هذه المكانة بموهبته الأدبية ولكن بقوة حنجرته، ففى العصر الإشتراكى، كان هو «بابا» الإشتراكية، وهو مفتى الواقعية الإشتراكية، واحتل مناصب قيادية عليا فى الدولة، فلما سقطت دولة الإشتراكية، آثر الرحيل إلى الخارج، ونحى النقد جانبا وأصبح الآن واحداً من «المبسوطين» فى مصر!!

ولكن عبد القادر القط، الصادق مع نفسه ومع الناس، آثر أن يختفى فى زمن الجعجعة بينما تصدر المرحلة عشرات من النصابين! وظل وفيا لندوة «قهوة عبدالله» ولمنصبه كأستاذ فى الجامعة، وظل خفيض الصوت، يتكلم نادرا، وحتى فى هذه المرات النادرة، كان يتكلم على استحياء! ولم تكن له نزوات خاصة أو شطحات من أى لون.

كان بيته فى الدقى ومجلسه فى قهوة عبدالله هما كل دنياه. وكان بسيطا وزاهدا على نحو ما. وحتى فى أيام «نعمة» الإذاعة والتليفزيون ومسرح الدكتور حاتم بقى فى الظل مع كتبه ومحاضراته. وحتى عندما فتحت دار النشر أبوابها لاستقبال إنتاج جمال الدين الرمادى، لم يسارع الدكتور القط كغيره إلى هذه الأماكن، مع أنه لو فعل لقدم للناس إنتاجا عظيما وباهرا ومشرفا له ولمصر! وكان يكن احتراما عظيما لأنور **المعداوى**، ولكن نظرته إليه كانت تحمل شيئا من الرثاء، باعتبار أن **المعداوى** كان رجلا شديد المثالية فى عصر لا مثالية فيه! عصر أصبح

فيه أحمد عبد العاطى صحفيا يشار إليه بالبنان، واسماعيل عبد الجبار مؤلفا يتردد اسمه عبر الإذاعات! ولم تكن نظرته لما يجرى حوله تحمل شعور المرارة الذى كان يحمله أنور المعداوى، كما أنه لم يناصب المجتمع العداء كما فعل غيره، ولكنه أخذ الأمور بهدوء، وعلى أن ما كان سيكون! وعلى الرغم من ذلك، كان يحتفل بأية موهبة جديدة، وبأية حركة تبشر بخير، وهو الذى قدم كتابى الأول «السماء السوداء»، وحرض طلبته فى كلية الآداب على قراءته باعتباره نموذجا من الإنتاج الأدبى الجديد. وهو الذى احتفل بإنتاج صلاح عبدالصبور المبكر، وبقصص يوسف إدريس التى نشرت فى السنوات المبكرة فى الخمسينات. وكان يحب زكريا الحجاوى حبا شديدا، ويعتبره عبقريا حقا، ولكن سوء حظ مصر أن هذا العبقرى أهدر إنتاجه فى «الكلام»، فجاءت أعماله الخالدة مجرد طلقات طائشة فى الهواء! وكان يحمل للشيخ عبد الحميد قطامش هوى خاصا فى نفسه، ويعتبره نموذجا للعبقريات التى أهدرتها ظروف المجتمع السيئة.. فلو أن عبدالحميد قطامش وجد فى بيئة أخرى كفرنسا، لكسبت الإنسانية أديبا عبقريا ليس له نظير. وكان يستمتع بمسرح نعمان عاشور ويعتبره أبا للمسرح العربى الحديث وكان الدكتور القط يتمنى لو أتيحت له فرصة للتأليف، فهو أحيانا كان يقرض الشعر، و لكنه كان يختص نفسه وأصدقاءه المقربين بهذا الشعر! وقد حاول أن يكتب قصصا ثم أقلع عن ذلك فجأة لسبب لا أدريه!وعندما انهدمت قهوة عبدالله فى بداية الستينات، تشاءم الدكتور القط وانتابه هم شديد!. وعندما نقل ندوته مع أنور المعداوى كان يزفر

أحيانا بلا مناسبة ويردد فى حزن بالغ «مش دى قهوة عبدالله» وعندما هاجر أنور المعداوى إلى قريته فى ريف البحيرة أدرك أن الحياة قد أصابها حادث مؤسف، وراح يتردد على المقهى مع محمود شعبان فترة ثم غاب هو الآخر، ثم اختفى تماما بعد موت أنور المعداوى وكأنه متعمد هذا الاختفاء، تضامنا مع المعداوى الذى اختفى بالموت، فاختفى هو الآخر بالحياة! ولكنه عاد يلمع من جديد فى جامعة بيروت العربية، وترك هناك تلاميذ أوفياء، وحلقات أدبية شربت حتى ارتوت من أدبه ومن علمه. ثم لمع فى عهد السادات كعميد لكلية آداب عين شمس. ثم عاد من جديد إلى الظل فى عصر كان أهم نقاده هو حسن عبده، وأعظم مواهبه الجديدة عبد السلام الأطفيحى!

والدكتور القط هو أكثر الناس شبها بالكاتب الكبير يحيى حقى. كأنما هو حريص على الإبتعاد عن دائرة الضوء. وهو مع مندور ولويس عوض يشبه عبد الرحمن شكرى مع المازنى والعقاد. عاش فى هدوء وذهب فى هدوء، مع أنه كان أغزرهم علما وأنعمهم موهبة. وميزة عبدالقادر القط أنه لم يلتحق بركاب أحد، ولم يمش فى تيار، ولم يصفق لإنتاج دون إنتاج، كان مع الإنتاج الجيد من كل الألوان. وكان مع الأدباء الموهوبين من كل اتجاه. لم ينصب نفسه «بابا» للأدب، ولم يوزع صكوك الغفران على الأدباء، وكان يحتفل بكل موهبة ولو كانت ضئيلة. وكان يرى أن الموهبة هى مصدر كل السلطات.. ذات مرة كنت أجلس معه فى المقهى، وكان المعداوى يقرأ لى قصة قصيرة، وعندما انتهى منها قال لى وهو يضحك ضحكته الشهيرة «عيبك الوحيد يامحمود إنك

مش مدرك قيمة ما تكتبه»!! ورد عليه القط فى هدوء.. «بالعكس، لعلها ميزة محمود، لو أدرك قيمة ما يكتبه لفسد»!!

وعندما قرأت عليه فصول أول مسرحية كتبتها «فيضان النبع» صمت قليلا ثم قال «حوارك ممتاز، ولكن لابد لك من دراسة قواعد المسرح»!. وبعد أيام جاءنى بكتاب للأستاذ درينى خشبة ونصحنى بدراسته. وللأسف لم أستطع أن أستفيد من هذا الكتاب فى معالجة «فيضان النبع». ولكن تأثيره كان عظيما عندما شرعت فى تأليف مسرحية «عزبة بنايوتى»! وحضر الدكتور القط المسرحية التى أخرجها الخميسى عدة مرات، وكتب عنها نقدا وفسرها بشكل لم يخطر على بالى قط، فقد قال إن العزبة هى مصر، وبنايوتى هو الأجنبى المحتل، وكان هو التفسير الوحيد للمسرحية، والصحيح أيضا، وعندما صارحته بأن هذا الأمر لم يخطر لى على بال قط، قال بهدوء وبالحرف الواحد «أنت مالكش دعوة أنت تكتب وبس»!! وكان هو الذى نصحنى مرات بألا أدع العمل الصحفى يطغى على إنتاجى الأدبى. وعندما قرأ روايتى «عندما يعود القمر» نصحنى بأن أكتب رواية أخرى، وبالفعل شرعت فى كتابة رواية أخرى، ولكن لم أستمر، فقد استغرقنى العمل الصحفى ثم العمل السياسى بعد ذلك، وكان هذا هو أكبر أخطائى فى الحياة!.

وهو بالرغم من صحته وزهده وعزلته كان شديد المتابعة لما يجرى فى الحياة. كان يسمع الإذاعة ويحضر عروض المسرح ويتردد على السينما، ويزور الاحتفالات الشعبية، ويقرأ الصحف اليومية، ويتابع

الإنتاج الأدبى الجديد! وعندما أذاع عبدالرحمن الخميسى «حسن ونعيمة» فى حلقات، كان شغوفا بها وحريصا على متابعتها بانتظام، وكان يعدها عملا أدبيا رائعا، بينما كان يعدها بعض النقاد الموسميين عملا من أعمال الإسترزاق!. وكان حريصا فى شهر رمضان على الإستماع إلى مسلسة من قصص القرآن، ويعدها عملا أدبيا دينيا عظيما، بينما كان بعض النقاد «الأرزقية» يتعمدون الحط من شأنها، ويعدونها لونا من ألوان الشعوذة والاحتيال! وعندما كان عضوا فى لجان القراءة بالمسرح، لم يرفض عملا مسرحيا لأديب على الإطلاق. وكان يرى أن كل جهد ينبغى أن يقدر، ولكنه غالبا ما كان يشير بإجراء تعديلات على العمل المسرحى، إذا كان يحتاج إلى هذه التعديلات. ولم تستطع الرقابة أن تستخدمه يوما فى قطع الطريق على مسرحية مشاغبة. مع أنها استطاعت إستعمال غيره من أصحاب الأصوات التى احترفت العواء!.

وكانت علاقته حسنة للغاية بالطلبة فى الكلية، وعضوا فى أكثر من أسرة طلابية وكان يعقد الندوات لبعضهم فى منزله. ويرى أن العمل فى الجامعة يجرى على نسق العمل فى المدارس الثانوية، وهو الخطأ الأكبر الذى وقعت فيه الجامعات المصرية حتى الآن!.

وبالرغم من عدم إنتمائه إلى مذهب معين، أو حزب من الأحزاب، إلا أنه كان محترما من الجميع، مهابا بين الكل، سمعته فى الوسط الأدبى كله «أبيض من اللبن الحليب». فهو لم يسترزق أبدا، ولم ينصب نفسه داعية لمذهب ما أو شخص ما، ولم يكن فى ركاب أحد، ولم

يحاول أن يجمع ثروة. ولم يمد يده طالبا منصبا، وظل حريصا على بقائه في الجامعة كمجرد أستاذ. وهو فى المقابل احتفظ برأيه لنفسه ولم يدخل معارك عنيفة، ولم يعرض نفسه للإنتقام الشديد، ولم يتعقب «الأرزقية» ولم يقف فى طريقهم، ولذلك أسقطوه من حسابهم، وهم يخوضون معركة الحياة والموت من أجل الإسترزاق!.

وظل على الدوام راهبا فى دير مصر، وقد كان دائما مع وطنه لأنه كان مع العدل ومع الكرامة ومع الإستقامة ومع الشرف. ولأنه لم يتنازل ولم يزايد، ولم يستخدم حنجرته مطية لبلوغ الأهداف، ولذلك كان مع مصر، ولكن كان على غير المعنى الذى يردده «الأرزقية» عندما يشرعون فى إغلاق باب الاجتهاد أمام المصريين!، فقد كان يدعو كل الناس إلى الاجتهاد من أجل مصلحة مصر ومستقبل مصر. ولو كانت الأحوال حسنة، والظروف مواتية، لكان عبد القادر القط هو قاضى قضاة مصر فى محكمة الأدب، وهو أصلح من يشغل منصب سكرتير عام المجلس الأعلى للفنون والآداب. ولكن بعض الظروف التى مرت على مصير كانت تجعل من الحياة الأدبية قطة تأكل بنيها، وخيرهم على الأخص!.

وقد نجحت هذه الظروف فى أن تأكل الدكتور عبد القادر القط، فانزوى أخيرا لا أدرى أين، ولكن بقاءه على قيد الحياة يجعله شاهدا على عصره، وأتمنى لو يتفرغ الآن لكتابة ذكرياته عن تلك الفترة المضطربة والقلقة من تاريخ مصر!.

كما أنه قطعة حية من ندوة «قهوة عبدالله»، فهو أحد المؤسسين، وهو أيضا أحد الأئمة الذين أشرفوا على الحياة الأدبية فى مصر، وغمروها بالنور فى الأربعينات والخمسينات وجزء من الستينات فى هذا القرن.

وإذا كان أنور المعداوى فى الحياة الأدبية هو ضمير مصر، وزكريا الحجاوى كان تراب مصر، فالدكتور عبدالقادر القط كان قبسا من روح مصر الناعمة والشفافة والحانية والمضيئة.

وإذا كان الدكتور القط قد سقط من قائمة المشاهير، فهى عادة مصرية، إذ سقط من نفس الكشف عبقريات عظيمة ومواهب فذة أبرزها إبراهيم المازنى وزكي مبارك والشاعر إسماعيل صبرى والشاعر أحمد فتحى، بينما لمع فى عصرهم من كانوا مثل الطين إذا سقطت عليه الشمس.

أما جيلى فقد عاش مع القط وتتلمذ عليه، وتعلم على يديه، وتشرف به! وستبقى صورة الدكتور القط تلمع دائما فى عيون مصر!.

□□

الرجل الشجرة .. زكريا !

لا يبعث الأسى فى نفسى مثل صفير باخرة تغادر الميناء فى الليل. ولا تمتلئ نفسى بالشجن كامتلائها لصوت قطار ينهب القرى والمدن والليل قبل لحظات من طلوع الفجر وفى الوقت الذى أتأهب فيه للنوم! ومنظر البحر يذكرنى ببلاد بعيدة وأيام سعيدة قضيتها هناك! وأشجار الجميز بالذات تذكرنى بأيام طفولتى البريئة الهنيئة وسنوات من العمر قضيتها تحت أغصانها على شاطئ الرياح! والنوافذ المغلقة تذكرنى بالسجن وبالأيام الميتة خلف جدرانه! والرصيف يذكرنى بأيام الصياعة التى بددناها فى مناقشات بيزنطية وديالوجات سخيفة، ولكنها بالرغم من ذلك كانت أياماً مجيدة، لأننا تصورنا خلالها أننا ملكنا كنوز المعرفة، وأننا توصلنا إلى معرفة سر الكون: فلما اكتشفنا الحقيقة بعد ذلك أدركنا فى الوقت نفسه أن العمر قد ولى وأن الوقت قد فات! والحقيقة التى اكتشفناها بعد فوات الأوان هى

أننا لا نعرف شيئا، وأن ما نعرفه هو أقل مما يجب وأتفه مما ينبغى، وأن الكتب كثيرة والعمر قصيرا! وأن المعرفة طريق ليس له نهاية. بينما الإنسان يولد ليموت، وأنه يقرأ لينسى ويتعلم ليكتشف فى النهاية أنه أصبح أجهل مما كان! وبعض أصدقائى الذين ماتوا نسيتهم تماما والبعض الآخر أذكره أحيانا، وقلة قليلة منهم لم يغيبوا لحظة واحدة عن ذاكرتى، ولا يمر يوم واحد من عمرى دون أن أذكرهم عدة مرات: من هؤلاء كامل الشناوى الذى تعرفت عليه فى بداية الخمسينات، والذى تعرفت عنده على عدد من مشاهير الجيل وكانوا يخطون أولى خطواتهم فى الحياة! منهم أيضا عبد الحليم حافظ الذى تعرفت عليه فى قهوة بلدى فى عابدين، وأحسست بشئ ما يشدنى إليه، ربما لأنه كان مثل حالى مرهقا ومكسور الخاطر ووحيدا فى الحياة! ومنهم سعيد أبو بكر المضحك العظيم الذى عاش حياة قصيرة وعاصفة وساءت أحواله فى نهاية العمر، ومات ممرورا من الناس ومن الحياة! ومنهم زكريا الحجاوى الذى كان جزءا من الحياة ذاتها، كأنه نتوء خرج منها أو طريق متعرج فى شعابها، أو ظاهرة من ظواهرها كالمطر والرعد والزلزال! ولعل موت زكريا الحجاوى هو الحادث الوحيد الذى هز أعماقى مثل جذع شجرة طيب كشجرة جميز حلو المذاق، كثمار المانجو. وكان أمير الصياع بلا جدال، كان يعشق مصر ولعل ذلك هو السبب الذى جعله يطوف فى أرجائها على قدميه. وكانت مصر عنده هى القرية، والشعب عنده هم الفلاحون، والحياة البسيطة الرتيبة هى الحياة المثلى. وكان يردد دائما خصوصا فى أوقات المحن والأزمات.. لا أريد

من الحياة أكثر من قيراط واحد من الأرض وشجرة وحصيرة أفرشها تحت أغصانها وأتمدد عليها وبجانبى قلة فخار لتبريد الماء! هذه كانت كل أحلامه، ومدى مطامعه فى الحياة. ولم تكن هذه الأحلام تكلف أكثر من خمسمائة دينار كويتى لتصبح من حقائق الحياة! ومع ذلك مات الفنان الكاتب الأديب زكريا الحجاوى دون أن يحقق حلمه. وغادر الحياة دون أن تتهيأ له فرصة ليرتاح لحظة! وظل يسعى من أجل أكل العيش حتى بعد أن اعتل قلبه واختل نبضه! الغريب أن هناك أدباء وكتابا أقل فنا من زكريا الحجاوى، وأقل موهبة، وأقل عطاء يملكون قصورا على شاطئ القناة، وبعضهم يملك قصورا على شاطئ النيل، والبعض يملك ضياعا فى ريف مصر! ولعل هذا هو السبب الحقيقى الذى صدمنى بشدة فى موت زكريا الحجاوى. فهو قطع رحلة حياته بين الميلاد والموت بالخطوة السريعة! كأنه عسكرى جيش أتى أفعالا من شأنها الإهمال وعدم الانضباط ومخالفة الأوامر العسكرية! وهو عاش كأنه مشدود إلى جذع شجرة والسياط تلهب ظهره، عقوبة مسجون خالف اللوائح، وخرج عن تعليمات البيك المأمور! ومع ذلك ما أصفى ضحكته حين كان يضحك، وما أعمق فرحته حين كان يفرح. وما أهدأ نفسه حتى فى لحظات الخيبة والإحساس بالضياع! ولازلت برغم السنين. برغم السنين الطويلة أذكر أول لحظة رأيت فيها زكريا الحجاوى. شدنى صديق من يدى إلى بيته فى حارة مظلمة من حوارى الجيزة. كان عندى من العمر عشرون عاما ومعى من الفن قصة قصيرة. واكتشفت أن بيت زكريا كان عاريا تماما من الأثاث، كأنه

زنزانة يقضى فيها فترة عقوبة. ولكنه استقبلنى ببشاشة وقرأ قصتى باهتمام. وطلب منى أن أقرأ كثيرا وأن أقرأ خصوصا فى التراث، وذكر أمامى عدة كتب كنت لحظتها أسمع اسمها لأول مرة، ودلنى على الجبرتى وابن إياس، وقال وهو يدخن بشراهة سجاير رخيصة: اقرأ ألف ليلة وليلة إنها أم الفن القصصى ليس بالنسبة للعرب فقط ولكن بالنسبة للعالم. وقضيت عدة ساعات مع زكريا الحجاوى فى منزله، وشعرت بحجم المحنة التى يعيشها! فقد كان البيت شديد الضيق والعائلة كثيرة الأفراد. وحكى لى فى بساطة قصة حياته وكأننا أصدقاء منذ ألف عام. لقد تزوج من فتاة أحلامه وعاش معها أحلى أيام العمر، ثم اضطر إلى الانفصال عنها لأن أخاه الأكبر توفى فجأة تاركا زوجة ونصف دستة من الأبناء. واضطر زكريا الحجاوى للزواج من زوجة أخيه لكى يعول أبناءها، هكذا بشهامة وببساطة وبدون تعقيدات!.

وعندما غادرت منزل زكريا الحجاوى كانت الشمس قد أذنت بالمغيب، وكان الجو حارا لم يزل، ولم أكن وحدى حين غادرت منزل زكريا بل كان زكريا معى. وعرجنا فى طريقنا على دكان سجاير أخذ زكريا منه حاجته من الصنف الرخيص الذى كان يدخنه. وهمس فى أذن صاحب الدكان بكلمات، وسرعان ما فتح الرجل الطيب الدرج وتناول منه عشرة قروش فضة ودسها فى يده. ومضى زكريا الحجاوى يقطع الطريق من الدكان إلى ميدان الجيزة فى خطوات ثابتة وقوية ومتعالية. واندهشت لشعبيته الواسعة فى الجيزة، فقد اضطر إلى التوقف عدة مرات ليصافح بعض المارة، واعتذر لكثيرين من الجالسين على

الأرصفة عن شرب الشاى معهم لأن عليه أن يذهب إلى موعد هام!
وبعد رحلة استغرقت وقتا طويلا وصل زكريا الحجاوى إلى قهوة محمد عبدالله، وكانت هذه أول مرة أجلس فيها على قهوة عبدالله.

وكانت أول مرة أيضا أرى فيها أنور **المعداوى** ورشدى صالح وسيد قطب ونزار قبانى. وخيل إلى أول الأمر أن نزار قبانى ممثل سينما جاء يسرى عن نفسه بالجلوس بعض الوقت مع الأدباء والشعراء. وجلست بجوار زكريا الحجاوى بعد أن قدمنى إلى الجالسين قائلا.. الأستاذ محمود السعدنى الكاتب الفنان..!! وشعرت بخجل شديد وغيظ أشد. فقد ظننت أنه يسخر منى! فلم أكن أستاذا ولم أشعر يوما ما بأننى كاتب أو فنان. وكنت أخجل من عرض إنتاجى على أحد. والسبب أننى عرضت إنتاجى ذات مرة على بعض أصدقائى ولكنهم سخروا منى. وحتى الذين احترموا إنتاجى همسوا فيما بينهم بأننى سرقت القصص التى قرأتها عليهم من بعض الكتب! ولكننى بلعت ما تصورت أنه إهانة من زكريا الحجاوى وجلست بين المجموعة صامتا. فجأة سألنى أنور **المعداوى**: وليك إنتاج ياأستاذ؟ ورد زكريا الحجاوى على الفور: معاه قصة جاهزة، أنا باعتبرها بداية جيدة. وتناول أنور المعداوى القصة التى كنت أحشو بها جيبى وطالعها فى صمت فى الوقت الذى كانت عينى تتابعه فى قلق، فجأة توقف عن القراءة وشارك فى الحديث، وأحسست أننى انتهيت وتمنيت أن تنشق الأرض وتبلعنى. فها هو أنور **المعداوى** قرأ القصة ولم تعجبه. بدليل أنه توقف عن القراءة واشترك فى الحديث! وهممت أن أغادر القهوة وأن أذهب إلى أى مكان بحيث لا يقع بصر

أحدهم عليَّ بعد ذلك، ولكن شجاعتى خانتنى وأحسست ببرودة تسرى فى أوصالى، وبأن ساقىَّ ترتعشان ثم شعرت فجأة بأن ريقى جف، وأننى فى حاجة إلى كوب شاى ساخن، ولم يكن فى الجالسين أحد أعتبره صديقا لأطلب كوبا من الشاى على حسابه، كما أنه لم يكن معى نقود لأطلب كوبا من الشاى لنفسى. ولا أدرى إلى أين ذهبت بفكرى عن قهوة عبدالله. ولكنى انتبهت فجأة على أنور **المعداوى** وهو يجرى ببصره على سطور القصة. وخفق قلبى من جديد. فهؤلاء الناس نوع آخر من البشر، ليس من عينة أصدقائى الذين يشاركوننى لعب الكرة! وظل أنور **المعداوى** يقرأ حتى انتهى منها تماما. ثم نظر إلىَّ طويلا وكأنه يتفحصنى وقال معلقا على القصة.. أنا ألاحظ أنك بتكرر ألفاظ معينة كثيرة. ورد زكريا الحجاوى قائلا: وأنا لاحظت نفس الملاحظة وأعتقد أن السبب فى كده، أن حصيلته اللغوية مش تمام، عشان كده نصحته يقرأ كثيرا، وخصوصا فى كتب التراث. ورد أنور المعداوى: مش مشكلة، المهم أن الكاتب يعبر بالألفاظ اللى عنده، اللغة وسيلة مش غاية يازكريا! ودخل الإثنان نقاشا حول الموضوع، واشترك الحاضرون فى المناقشة، وبينما كان النقاش محتدما كنت أنا فى واد آخر، فهذا النقاش كله كان حول قصة من تأليفى. أنا أصبحت إذن مادة لمناقشات صالونات الأدب فى القاهرة وشعرت بأننى أنتفخ، وبأننى أزداد وزنا، وخيل إلى أننى سأطير فى الهواء، وجلست وسط الحاضرين كأننى الجاحظ فى مجلس من مجالس الأدب بالبصرة! ولكنى سرعان ما تضاءلت، وانكمشت فى مكانى كأننى بالونة ثقبها أحد العابثين بإبرة

خياطة. فقد وصل إلى مجلس الحكماء رجل معمم أنيق بدرجة لافتة للنظر يرتدى زى كبار المشايخ فى الأزهر. وعليه سمات الجد والعظمة. صافح الحاضرين، وانحنى باحترام وهو يسلم على أنور **المعداوى**. وأبدى نفس الاحترام لسيد قطب، وصافح رشدى صالح فى أدب، وسب زكريا الحجاوى وهو يمد له أطراف أصابعه. وضحك زكريا وهو يصافح «مولانا الشيخ» ونظر الرجل المعمم نحوى بازدراء شديد أهاج جميع مواجعى، ومد لى طراطيف أصابعه، وانتهز فرصة وقوفى لمصافحته فجلس على مقعدى! ووقفت حائرا كفلاح نزل مطار لندن لأول مرة؟ وانتبه أنور **المعداوى** للمأزق الذى أنا فيه فقال للشيخ المعمم: أنت ياعبدالحميد خدت كرسى الأستاذ! ورد عبدالحميد ساخرا: الله، هوه دا أستاذ؟ طيب لا مؤاخذة ياأستاذ! وهممت بأن أضرب المعمم قلما على قفاه وأطلق ساقى للريح. ولكنى تجمدت ولم أدر كيف أتصرف! المهم أنه بانتهاء السهرة فى منتصف الليل كنت قد خرجت بصديقين من قهوة عبدالله، زكريا الحجاوى الطيب، أما الصديق الآخر فهو نفس الرجل المعمم الذى عاملنى بجفاء وسخر منى بفظاظة، والمهم أننا صرنا صديقين إلى آخر العمر. مولانا الشيخ عبدالحميد قطامش، المحامى الشرعى، وأحد ظرفاء مصر الكبار، المغرور المظهر، المسحوق فى الواقع، أكثر المشاهير فى عصرنا طيبة وقلقا وهما وعقدا، وأعظم دليل على أن المصرى يستطيع أن يصنع – برغم كل الظروف – أعظم المعجزات. ويا لها من ليلة إلتقيت فيها بعدد من مشاهير عصرنا، وكنت لم أزل شابا فى العشرين قليل العلم ولكن كثير التجربة شديد اليقظة

عظيم الطموح. ولكن طموح الفقراء - كما يقول عبد الحميد قطامش - كالفقاعات، عندما يصطدم بالواقع الأليم سرعان ما ينفجر ولا يخلف وراءه إلا «قروح وجروح».

***

وإذا كان أنور **المعداوى** هو أعظم أبناء قهوة محمد عبدالله، فزكريا الحجاوى هو أخلص أبنائها وأعظمهم فنا وأشدهم تأثيرا فى الجيل الذى جاء من بعده. وعندما جذبت الصحافة زكريا ظل مواظبا على زيارة القهوة على عجل، وأحيانا كان يتلكأ قليلا لينهى نقاشا حادا بينه وبين الأصدقاء. ولكن لحسن الحظ لم يعمر زكريا طويلا فى بلاط صاحبة الجلالة، سرعان ما عاد إلى القهوة من جديد، وقد امتلأت نفسه مرارة من غدر الزمان وخيانة الأصدقاء! ولكن زكريا الحجاوى الذى كان يتفجر حيوية ويفيض نشاطا لم يستسلم. بدأ رحلة حياة جديدة وألقى بنفسه فى نهر الفن الشعبى وسبح فيه بمهارة، وربما فاضت نفسه بشرا عندما اكتشف أنه وجد نفسه وأنه عثر على الطريق الصحيح! وراح زكريا الحجاوى يجوب ريف مصر، يقضى لياليه فى أفقر الكفور وأصغر النجوع، خادعا نفسه بالوقوع فى قصص غرامية مع مطربات شعبيات لم يكن لهن صلة بجنس النساء إلا عن طريق الملابس والأسماء. وكان هذا هو رأى الأصدقاء ولكن رأى زكريا كان يختلف. وعندما كانت الفرصة تسنح له بالحديث عن هؤلاء النسوة، كان يتحدث عنهن باحترام، وبنعومة وكأنه يتحدث عن غادة الكاميليا أو ماجدولين أو

جولييت أو بثينة التى خلبت لب الشاعر جميل! وما دامت المسائل كلها نسبية، فإن زكريا كان صادقا فى إحساسه تجاه هؤلاء الماجدولينات، فهو فى النهاية أصدق كاتب ريفى أنجبته مصر. وهو كان يعشق الأرض المصرية، وكان بينه وبين الطرق الزراعية علاقة غرام، وكان يهيم بأشجار النخيل ويقف مبهورا أمام الخضرة الممتدة بلا نهاية فى الحقول. وكان يحمل عشقا خاصا لأشجار الجميز، وينشرح قلبه كلما نفذت إلى خياشيمه رائحة روث البهائم، وكثيرا ما كان يصرخ من شدة الوجد كلما رأى فلاحة سمهرية العود تتلوى كالأفعى وهى تخطر فى الملابس السود! وحقق زكريا الحجاوى إنجازات ما كان يمكن تحقيقها لو أنه استمر فى عمله الصحفى. إلتقط ألحانا ريفية كانت مجهولة، وصنع نجوما فى المجتمع المصرى كانوا مجرد صعاليك يتسولون بالغناء. واستطاع زكريا الحجاوى أن يفرض على مصر عددا من هؤلاء، أدهشوا مصر بفنونهم الأصيلة، وبعضهم أدهش العالم كله بعد ذلك كالريس متقال. ولمع داخل حدود الوطن العربى محمد طه وخضرة محمد خضر وفاطمة سرحان ومحمد أبو دراع وجمالات شيحا، وأصبح زكريا الحجاوى هو شيخ الطريق والطريقة وكان سرادقه فى سيدنا الحسين خلال شهر رمضان هو التعبير الأكثر صدقا عن التغيير الذى حدث فى مصر خلال فترة الستينات! وانتعش زكريا الحجاوى ولكن ليس بالقدر الذى كان يجب أن يتوفر لفنان على هذا المستوى العظيم. أحيانا كان يشعر بالضياع فيعود عندئذ إلى شلة الأصدقاء، وكالصوفى التائه كان يتمنى لو جاء المخلص ليعتقه من الحياة ويخلصه من العذاب! ولكن هذه

الحالة كانت مجرد لحظات عابرة فى حياة زكريا، سرعان ما كان يتخلص منها ويعود إلى الدوامة من جديد، ويختفى فى الريف. ولكنه حتى خلال غيبته الصغرى فى ريف مصر، كان يحتفل بكل موهبة يصادفها فى طريقه، ويدفع بكل ناشئ خطوات على الطريق، ويحمى كل عود أخضر من النوايا الشريرة والظروف الحمقاء! ولو أتيحت الفرصة لزكريا الحجاوى لترك لنا ميراثا أدبيا عظيما، ولكن هذه الفرصة لسوء الحظ، لم تتح له قط. كانت أعباء عائلته الكبيرة، وموارده القليلة تقف حائلاً بينه وبين التفرغ للإبداع. وعندما أيقن أن الفرصة قد فاتت، اكتفى بالحديث عن الكتب التى سيؤلفها فى المستقبل. ولكن حديثه اقتصر فى النهاية على كتاب واحد أطلق عليه اسم «كوتشينة». وأعتقد أنه كان يتمنى لو تتاح له الفرصة والوقت والإمكانيات لتأليف هذا الكتاب! وكتاب «كوتشينة» الذى كان يحلم به زكريا الحجاوى هو فصول عن شخصيات صادفها فى حياته، وقد حصر الشخصيات التى كان ينوى الكتابة عنها، وحدد أسماء الفصول أيضا. فالذئب عن شاعر معاصر شهير وعظيم، ولكن بقدر عظمة شعره كان انحطاط الشاعر نفسه، وبقدر لمعان أدبه كان سواد قلبه وخبث نواياه. وقد عانى زكريا الحجاوى من لؤم هذا الشاعر، كما عانى آخرون من جيل زكريا لدرجة أن ألمع كاتب ساخر ربما فى قرننا هذا ضاع فى الحياة بسبب مكائد هذا الشاعر وغدره. والعقرب عن شاعر وكاتب شهير، شغل الناس والحياة خلال عمره، وبالرغم من طيبته كان مصدر ضرر للكثيرين. وكان لسانه كذنب العقرب يلطش الناس لطش عشواء. وكان يذبح أى صديق

عزيز له إذا حبكت النكتة. وكثيرا ما كان يندم على مافعله ولكن بعد فوات الأوان، فهو كالعقرب لا يعض ولكن لسانه يلدغ لأنه هكذا وظيفته التى خلق لها فى الحياة! والشرطى عن أديب كان يعمل فعلا بالشرطة، ثم احترف الأدب واشتغل بالوظائف المدنية، ورفعته الظروف إلى منصب كبير كان زكريا يعمل مرءوسا فى إدارته. ولكن زكريا الفنان الذى كان يخاف الشرطة وأقسام البوليس، ظل يخاف من هذا المدير كأنه طفل عابث يشعر بالخوف تجاه أبيه. أو كأنه مواطن غير صالح يشعر بعدم الطمأنينة إذا صادف شرطيا فى الطريق! وفى الكتاب فصول أخرى عن الطيب، والمجنون، والضائع، والموهوم، والهايف، والمزعوم! ولعلنا خسرنا عملا إبداعيا عظيما لأن زكريا لم ينته من تأليف هذا الكتاب، وكان كلما حثه أحد على الشروع فى تأليف الكتاب، زعم أنه بدأ فى التأليف بالفعل، وكان يتعلل بأعذار كثيرة ولكن أهمها هو وقوف القلم فى يده عند شروعه فى كتابة الفصل الأخير عن الجوكر، والجوكر هو كارت الكوتشينة الذى تضعه فى أى موضع فينسجم، وتستخدمه على أى نحو فتحصد من ورائه المطلوب. وكان زكريا يقصد أديبا وشاعرا، نصف فنان، ونصف نصاب، نصف عبقرى ونصف مجنون، وقد مارس كل شئ، القصة والرواية والشعر وكتابة المقالات والتمثيل والإخراج، وتستطيع أن تذكره إذا كان الحديث فى أى فرع من هذه الفروع، ولكنك أيضا تستطيع أن تسقطه فلا يحدث خلل على الإطلاق!

وكان كتاب زكريا الحجاوى الثانى المفضل، والذى لم يكتب حرفا واحدا فيه، هو «البكور». وهو عن حياته الأولى فى المطرية، وتأثير

بحيرة المنزلة على نفسه، وحياته مع الصيادين، وأيامه البعيدة المجيدة التى عاشها هناك. وكان يحكى عن شخصيات عظيمة صادفها فى صباه. كان يذكر منهم واحدا اسمه «عبد العزيز السودة» وشيخ من المعممين هو الشيخ «السنطورى»، وهو رجل نال قسطا من التعليم فى الأزهر، ولكنه اشتغل بفن التواشيح، وبالرغم من أنه لم يشتهر إلا أنه كان عالما بالمقامات والألحان! ولعل الوفاء كان أهم صفات زكريا الحجاوى بعد الفن. فهو لم يتخل عن أصدقائه القدامى، ولم ينس مراتع صباه، ولم يعشق مكانا فى العالم قدر عشقه للمطرية مسقط رأسه، وللجيزة حيث عاش بقية الحياة، ولو صادف زكريا الحجاوى ظروفا حسنة ولو وجد من يستخرج من داخله أصدق خصاله وأنبل مشاعره، فلربما كسبنا زعيما شعبيا مثل عبدالله النديم ولكن لأن الظروف كانت معاكسة ونبض الحياة فى مصر كان مختلا، فقد جاء زكريا الحجاوى نسخة من النديم ولكن بالمقلوب. وإذا كان الشعب عند النديم وسيلة والهدف هو الثورة، فإن زكريا كانت لديه نفس الوسيلة ولكن بلا هدف على الاطلاق! بالرغم من أن مصر لم تنجب فى زمانة أديبا يستطيع أن يخاطب الفلاحين مثله، ولا خطيبا يستطيع أن يؤثر فى العامة من طرازه! إلا أن الأثر الوحيد الذى تركه زكريا فى جماهيره من البسطاء لم يكن أكثر من أثر العشرة الطيبة و[illegible] الحسن.. وكما بدأ زكريا غريبا فى المطرية عاد غريبا فى القاهرة فى نه[illegible]ة المطاف! وعندما جاء أنور السادات رئيسا لجمهورية مصر، ظن زكر[illegible] الحجاوى أن الحياة قد طابت له أخيرا. فهو صديق قديم للرئيس الراحل ال[illegible]ات وله عليه أياد بيضاء، فقد اشترك

فى إخفائه عن أعين الشرطة فى الأربعينات، وهو أحد المصادر التى استمد منها الرئيس الراحل ثقافته، وتعبيرات السادات الشهيرة: العيب وأخلاق القرية، والأصول والقيم، وديوان المظالم، والتصحيح، كلها من وضع زكريا الحجاوى! ولكن زكريا الحجاوى فوجئ، بمنع إذاعة أعماله الفنية من الإذاعة بقسوة، ثم فوجئ بفصله من وظيفته بخشونة! ولأن المصائب لا تجيء فرادى، فقد انهار المنزل الذى يسكن فيه ولم يستطع رغم كل الجهود التى بذلها العثور على مسكن آخر. وربما أدرك زكريا الحجاوى عندئذ أن زمانه قد ولى وأن نهايته قد حانت، واضطر مرغما إلى مغادرة مصر ليجد فى الدوحة على شاطئ الخليج ملجأً أمينا. وربما ضاعف من سروره وجود الطيب صالح هناك وفى منصب يشرف فيه على العمل الذى يؤديه الحجاوى. ولكن قلب زكريا الحجاوى لم يحتمل الإبتعاد عن مصر، ورئتيه لم تتعودا هواء غير هواء النيل، فانفجر قلبه فجأة تحت ضغط نفسى هائل. وعاش مريضا عدة أشهر على شاطئ الخليج، ولكنه لم يتوقف عن كتابة الرسائل لأصدقائه. وفى آخر رسالة كتبها للعبدلله يقول: لم تتغير مصر يا محمود ولكن الذى تغير هم ناسها، أو بمعنى أصح، الذين تغيروا هم بعض الناس الذين يطفون على السطح، والذين يتمتعون بألف وجه، وهم يقدمون وجها لعبد الناصر، ووجها آخر للسادات، ولو ضربة حظ، أصابتك يوما وأصبحت مهماً فى مصر فإن هؤلاء الناس أنفسهم سيرتدون وجها ثالثا لك، وسيكتشفون عندئذ كم ساهم «برعى السعدنى» جدك فى حضارة مصر الحديثة، ولأننى صديقك سيكتشفون أيضا كم ساهمت «بهانة الحجاوى» يرحمها الله مع برعى السعدنى جدك، فى صد الغزو الصليبى عن مصر!!.

وبعـدها بأيام أغـمض عـينيـه وأسلم الـروح.. بعـيـدا جـدا عن أرض مصر!.

وهكذا مات، أخلص أبناء قهوة محمد عبدالله، وأعظمهم فنا، وأكثرهم تأثيراً فى الأجيال التى جاءت من بعده، فنان الشعب.. زكريا الحجاوى.

□□

الساخر العظيم

عبد الحميد قطامش واحد من أعلام قهوة محمد عبدالله.. وهو بالقطع وحيد زمانه وفريد أوانه ولم أصادف في حياتي شخصية أخرى من نفس الطراز. وهو واحد من فحول الأدباء وإن كان لم يكتب أدبا. ولكن موهبته الحقيقية كانت في الكلام.

كان محدثا ربما لم يخلق مثله، وهو يمزج الفصحى بالعامية في مهارة الصائغ العظيم، فيأتي حديثه كأنه مسبوكة عظيمة تضم أغلى الجواهر وأندر الأحجار! وكان حساسا وذواقة وصاحب نكتة ومعقدا إلى حد كبير! كان يبدأ الناس دائما بالعدوان، وبعد سهرة واحدة يصبحون من أعز الأصدقاء! وكان يكره النساء ويحبهن في آن واحد، وهو لأنه كان شيخا معمما في صباه، وأيضا لأنه كان من طبقة الفقراء، فقد كان مرفوضا لدى النساء. ولعل ذلك هو سر حقده عليهن وسر شغفه بهن

أيضا! وقد عاش الشيخ قطامش حياته منفصلا عن زوجته، وتفرغ لتربية أبنائه، والسهر طول الليل مع أحد الأصدقاء. والطواف فترة الصباح على المحاكم، فقد كان واحدا من أقدر المحامين على الإطلاق. وكان يكسب كثيرا وينفق قليلا، ولم يشاهد قط خارج مكتبه أو بعيدا عن نطاق قهوة عبدالله، إلا نادرا. وكانت له صلات عريضة، وأصدقاؤه يعدون بالألوف، ومن كل الطبقات! وكان هذا يتيح له سهرة فى كل ليلة من الزمالك إلى سوق السلاح! ولكنه أبدا لم يتنكر لانتمائه الطبقى، ولم يقطع صلته بأصوله الأولى، وظل شبح رهيب يطارده طول العمر، وهو خوفه من العودة إلى أيام الفقر الأولى وزمن التعاسة المتناهية!.

وكانت تلك الأيام المبكرة من حياته لا تفارق ذاكرته، وكان يعود إليها فى كل سهرة، وكان باستطاعته دوما أن يلوى عنق الحديث إلى نشأته الأولى فى ريف الجيزة، حيث كان أهل قريته يصيبون وجبات الطعام بالصدفة، ويعيشون بلا مناسبة، ويموتون بلا سبب! وكان من الطبيعى أن يكون فلاحا يعيش مغروزا فى الطين والبؤس واليأس أيضا! ولكنه قاتل قتال المستميت لكى يرسله أخوه إلى الأزهر. وكان أخوه بينه وبين الأزهر عداء، فهو نفسه كان طالبا فى معهد القاهرة الدينى وقضى سنوات فى دراسة النحو والفقه والشريعة. ولكنه سئم حياة التلمذة فهجر معهده وعاد إلى القرية ليعمل فلاحا فى الأرض، ولكنه ظل يتميز عن زملائه فى القرية بلقب «شيخ» واحتفظ لنفسه بالعمامة حتى آخر يوم من حياته! ولذلك رفض الاستجابة إلى رغبة عبدالحميد قطامش ولكنه رضخ فى النهاية استجابة لشفاعة بعض الأقرباء وإلحاح عبدالحميد.

وفجأة وجد عبدالحميد نفسه طالبا فى الأزهر، وفى القاهرة، لا قريب له هنا ولا حبيب، وليس معه شئ إلا نصف جنيه، وعليه أن يدبر أموره بنصف الجنيه هذا خلال السنة الدراسية! ولو كتب عبدالحميد تلك الفترة كما كان يحكيها لترك لنا عملا أروع من طفولة جوركى وأكثر ألما من أيام طه حسين! وأكتفى هنا بلمحة رواها لى عبدالحميد حين كان طالبا. وفى نهاية العام الدراسى كان عليه أن يعود إلى قريته، ولم يكن معه نقود فقرر أن يذهب إلى بلدته سيرا على الأقدام. ولأنه كان يرتدى زى مشايخ الأزهر وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة فقد كان موضع سخرية الأطفال الذين يمر بهم فى شوارع القاهرة، ولأنه كان مفلسا فقد شعر بالضياع، ولأنه كان ضائعا بالفعل فقد بكى عندما وصل إلى امبابة فى طريقه إلى المنصورية قريته. وسار قطامش فى التراب والغبار وأحيانا فى الوحل خمسة عشر كيلو مترا تحت شمس محرقة ورطوبة لزجة حتى وصل أخيرا إلى الدار. ويقول: عندما جلست على المصطبة وخلعت حذائى، اكتشفت أن الجورب الذى كنت أرتديه لم يكن مكانه فى قدمى!! وليس هناك صورة أكثر صدقا وسخرية من تعليق عبدالحميد! وحكى لى ذات مرة عن قصة غريبة حدثت له عندما كان فى كلية الشريعة، فقد ذهب ببطاقة توصية حصل عليها واحد من أهل الخير موجهة إلى أحد باشوات زمان هو محفوظ باشا رشوان. ويبدو أن بطاقة التوصية كانت من رجل مدع لا علاقة له بالباشا، ولذلك رفض محفوظ رشوان مقابلة عبدالحميد. إلا أنه عاد فقبل مقابلته تحت إلحاح وإصرار واستماتة عبدالحميد! وعندما وصل عبدالحميد نفسه أمام الباشا راح

يحكي ظروفه، والغريب أنه وهو الشديد اللماضنة، فقد تلعثم وأصيب بالكتمة أمام الباشا العجوز. المهم أن عبدالحميد نطق ببعض الكلمات «وأنا طالب علم وأبحث عن أي عمل يعينني على طلب العلم»!! ولم ينس طبعا ترديد بعض العبارات المحفوظة مثل جعلك الله ياسعادة الباشا ذخرا للفقراء والمتعلمين!! وألقى عليه الباشا نظرة حائرة ثم طلب منه أن يعود في الغد. ولم ينم عبدالحميد تلك الليلة. فقد تصور نفسه كاتبا منفوشا كالديك الرومي في إحدى المحاكم الشرعية أو مستوظفا في إحدى دوائر الحكومة، أو مصححا للغة في إحدى دور الصحف. إن نفوذ الباشا باتع وهو حتما سيجد له وظيفة تكون حلا لجميع مشاكله في الحياة، وفي الموعد المحدد ذهب عبدالحميد مسرعا إلى مكتب الباشا محفوظ رشوان. واستقبله السكرتير بلا اهتمام. وناوله مظروفا صغيرا وقال له: الباشا ترك لك هذا المظروف. وتناول عبد الحميد المظروف. وأدع الوصف لعبدالحميد قطامش «حملت المظروف على أكف الراحة كأنني أحمل أمنية طال إشتياقي إليها، ورحت أهبط الدرج وقلبي يسبقني وتكاد دقاته المرتفعة تغطي على وقع أقدامي، وعندما أصبحت في الشارع لجأت إلى أقرب عامود نور لكي أتمكن من قراءة بطاقة التوصية التي تركها لي الباشا، وربما هي موجهة إلى أحد الوزراء أو أحد العظماء، ولابد أنها بالقطع ستكون بوابة الخير إلى عالم الاستقرار والحياة المنشودة. وفتحت المظروف برقة ولم أجد بطاقة توصية ولكن وجدت ورقة مالية من فئة الخمسة والعشرين قرشا، وانتفض جسمي كله، وأرعشت المفاجأة جلدي ووقفت ساهما، أفكر فيما يجب على أن أفعله، ووجدت نفسي في حيرة

شديدة، هل أعود إلى مكتب الباشا وأرد له المظروف وألقنه درسا فى احترام أولاد الناس خصوصا عندما يكونون طلاب علم فى الأزهر؟ أم..؟ أم أمضى فى طريقى وأحتفظ بربع الجنيه؟ وهو كاف لكى أركب الترام بدل السعى على الأقدام، والحصول على عشوة فاخرة عند الكبابجى، وعلبة دخان من صنف ممتاز أو شرب الشاى على مقهى العمال مع الحجاوى بالسيدة زينب! وترددت لحظات بين كرامتى ومصلحتى، بين شموخى وجوعى، بين أنفتى وحاجتى. ولم يطل ترددى، عدت أدراجى بقوة إلى القهوة والكباب وركوب الترام وتدخين السجائر، وأدركت لحظتها أن الفقراء ليس لهم كيان وليس لهم كرامة. وأن التشبث بهذه الخرافات بالنسبة لمن كان مثلى، أشبه بمحاولة الطيران بأجنحة من طراز عباس بن فرناس..!!».

إنها صورة من حياة عبدالحميد قطامش أيام التلمذة رواها لى بنفسه. وقد أخذتها من بين صور كثيرة للدلالة على ماصادفه عبدالحميد من عنت وما عاناه من مكاره، وما ابتلى به من أهوال. ولذلك كان حصوله على شهادة العالمية من جامعة الأزهر، أشبه بوصول أول رائد فضاء إلى القمر. ودفعه هذا الإنجاز الذى لم يكن يتوقعه إلى طبع بطاقات تحمل اسمه على النحو التالى «عبدالحميد قطامش عالمية الأزهر وعبدالحميد الديب ليست له مؤهلات»!! وقد رد عبدالحميد الديب على قطامش فيما بعد فطبع بطاقة هو الآخر كتب عليها «عبدالحميد قطامش المحامى الشرعى.. وولده رمزى»!! والغريب أن عبدالحميد قطامش رغم انطلاقه إلى أبعد الحدود، ورغم ولعه الشديد بالمرح، إلا أنه كان

غاية فى الانضباط خلال ساعات العمل. وكمحام شرعى كان واحدا من الأعلام، وكان يدخر تسعة أعشار دخله، ليس بخلا من عبدالحميد، ولكن الفلوس تحولت فى نظره إلى درع الأمان، والسد العالى ضد الفقر والجوع وأيام الضياع. وبالرغم من عصريته، وكمحام، كان لا يؤمن بالبنوك. وكانت نقوده كلها تحت البلاطة، وحافظته كانت دائما متخمة بالنقود! وغالبا ما كنت أراه يتحسس حافظة نقوده وهو جالس معنا فى المقهى، وكان يبدو سعيدا للغاية كلما مر بيده على الحافظة المنتفخة، فقد كانت هذه الحافظة هى علاقة السيادة والقوة فى دنيا الناس. وكان يتمتع بقدرة فائقة على إضحاك الحجر. ونكتته كانت لاذعة، وتعليقاته كانت جارحة، ولسانه كان أشبه بسيف مسلول. وبالرغم من ذلك كان يبدو ضعيفا إلى حد الانسحاق أمام رجال السلطة من الوزير إلى الخفير. ولذلك آثر طول العمر أن يبتعد عن أى عمل جاد ضد السلطة. وكان يطلق لسانه أحيانا ببعض النكات ضد الحكومة، فإذا تأزمت الأمور، لزم داره، وقبع فى سكون. ولذلك نجا عبدالحميد من المقصلة التى قطعت رؤوس كل أبناء جيله، فلم يسجن يوما ولم يقطع رزقه يوما، ولم يعان على أى نحو، وفى كل العهود!

وما أشد عقد عبدالحميد قطامش، وما أعقد تناقضاته. فبالرغم من نشأته الفقيرة إلا أنه كان يكره الفقر والفقراء أيضا!! وبالرغم من نشأته الريفية إلا أنه كان يكره الفلاحين ولم يقم بزيارة واحدة لقريته خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة من حياته. وكان يحب السهر فى بيوت الأثرياء، ويعشق الحياة المترفة والأنيقة، ويسعى للتعرف على طبقة

الضباط والقضاة ورجال الإدارة. ولكنه كان يكره المشاهير من الأدباء والفنانين ويحتقرهم، وكان يردد دائما «المشاهير هم مجرد فقاقيع على وجه المجتمع»! وبالرغم من بخله الشديد على الأصدقاء إلا أنه كان على استعداد لإنفاق آخر قرش من ثروته إذا وجد لمسة حنان عند امرأة جميلة! ولكن هذه كلها تبقى صفات شخصية لعبدالحميد، أما الجانب العام فيه وهو الذى يشغلنا فى الأصل، فلا شك أن عبدالحميد قطامش كان واحدا من أعظم الظرفاء الذين أنجبتهم مصر فى هذا القرن. وكانت له جولات وصولات مع عشرات من رجال الأدب والفن والظرف فى مصر، وسهراته مع زكريا الحجاوى وعبدالحميد الديب وعباس الأسوانى تصلح مادة لتدريس الفكاهة فى جامعات الظرف. ونكاته لم تكن قفشات لفظية فقط ولكنها كانت أشبه بمسرحية صغيرة، الحوار فيها مركز والحركة مرسومة وأحيانا يستخدم الديكور ويحرص على وجود مشاهدين! ذات مساء فى أواخر الأربعينات خرج معنا زكريا الحجاوى وأنا من منزله فى السيدة زينب ليرافقنا بعض الطريق ونحن فى طريق عودتنا إلى الجيزة. ولكن لأن الحديث «ذو شجون» فقد نسى عبدالحميد نفسه، ليكتشف فجأة أنه ذهب معنا إلى الجيزة. ولم يكن يرتدى إلا جلبابا وفى قدميه نوع رخيص من الشباشب. وفكرنا فى أن نعود معه إلى السيدة، ولكن الرأى استقر على أن نوفر له ربع جنيه مصرى يكفى لتوصيله بالتاكسى إلى منزله فى السيدة، وبعد أن استقل التاكسى وودعنا بإشارة من يده، أمر السائق بالتوقف فجأة، ونزل مسرعا ليهمس فى أذن زكريا «خد رقم التاكسى يازكريا» ولما سألناه عن السبب أجاب بجدية متناهية «أحسن السائق يقتلنى ويسرق الفلوس»!!

هذه كانت عينة من نكاته، قصة قصيرة موحية ولها أبعاد، وتقطر سخرية من الموقف كله، ولا ترحم أحدا، وكان أحيانا يقسو بشدة على نفسه، ربما ليتسنى له الحصول على إذن بالقسوة على الجميع.

***

وعاش الشيخ قطامش ومات، لا يصدق شيئا، ولا يؤمن بشئ، فالحياة أكذوبة، والناس مجرد أكاذيب، والنجاح صدفة، والفشل قدر، والأعمار بيد الله صحيح، ولكن فى أمر الحياة والإنسان سر ما لا يفهمه قطامش.

وكان شديد الإيمان بالله، ولكنه كان مؤمنا متعاظما فى الوقت نفسه ويعتقد أنه قريب جدا من الله، إلى الحد الذى ليس محتاجا بعده لتقديم الدليل على صدق إيمانه.

وكان أحيانا، عندما يخلو لنفسه، أو إلى صديق حبيب.. كان يبكى بكاء شديدا، وكنت أشعر فى تلك اللحظات، بعمق جراح الشيخ عبدالحميد، وغزارة نزفه.

وكان فى ساعات صفوه يردد حكمة أثيرة لديه: (لن يغفر الله لأمثالنا). وعندما أسأله عن السبب يقول: (لأننا خالفنا ما جاء فى اللوح المحفوظ!)، وأسأله: ماذا فى اللوح المحفوظ بالنسبة لنا، فيجيب: (نأكل مرة واحدة فى اليوم. ولكننا خالفنا الأمر، وأصبحنا نأكل ثلاث مرات، ونبقى أميين، ولكننا تعلمنا، ونظل فقراء، ولكننا أصبحنا أثرياء)! وأقول له ساخرا: أثرياء!! فيجيب: نعم إنك تملك سيارة فولكس فاجن، ترتدى بدلة، وتدخن، وتسافر للخارج فى مهمات صحفية، وهذا بالنسبة لما هو

مكتوب لك ثراء فاحش. وأسأله: وعلى ذلك سنخلد فى النار؟.. فيجيب ساخرا: لا أظن، لأن المحسنين سيدخلون الجنة، والمخطئين سيدخلون النار، ولكن أمثالنا – أنا وأنت وزكريا الحجاوى – لا مكان لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة بإذن الله.

وكان يؤمن إيمانا عميقا بأن ضربة حظ أصابت أصدقاءه، فأصبح زكريا الحجاوى فنانا شعبيا، وأصبح نعمان عاشور كاتبا مسرحيا، ومحمود الشريف ملحنا مشهورا، وأن هذا الذى حدث، كان من باب سخرية الأقدار!. ولذلك لم يقرأ قطامش حرفا واحدا من إنتاج أصدقائه. لم يشاهد مسرحية لنعمان، ولم يقرأ حرفا لزكريا، وبالرغم من احترامه الشديد لأنور المعداوى، إلا إنه لم يكلف نفسه عناء قراءة مقال واحد له.

ويبدو أن طريقة التعليم فى الأزهر – على زمانه – طغت على أى رغبة عنده للقراءة، فقد كان عليه أن يحفظ عن ظهر قلب كتبا تزن عدة أطنان، وكان عبد الحميد يعلق على ما حدث قائلا: «لقد قضيت زهرة العمر فى حفظها ثم اكتشفت فى النهاية أننى لم أستفد شيئا». وساعده على عدم القراءة، إصراره على الهروب من الوحدة وتجنبها، وإلقاء نفسه فى بحر الناس، فلم أشاهده وحيدا قط، ولم يكن يلزم داره إلا إذا كان عاجزا عن الحركة، وعندئذ كان يقوم باستدعاء الأصدقاء، ليقضوا الليل حول فراشه.

ولكن أخطر نقطة فى حياة عبدالحميد هى علاقته بالجنس الآخر، فقد عاش أعزب بالرغم من أنه كان متزوجا، ولكن زواجه تحطم فى

أولى مراحله، وبقيت الزوجة فى الريف على ذمته، وعاش هو وحيدا مع أولاده فى القاهرة. وكان يكره المرأة كراهية شديدة، والأكيد أن هذا الموقف كان راجعا إلى فترة شبابه، حيث كان شيخا معمما ولم يكن طلاب الأزهر فى قائمة فتيان الأحلام لبنات ذلك العصر، ولذلك لم يجرؤ مرة واحدة فى حياته على مغازلة امرأة، ولم يكن لديه الشجاعة للإفصاح عن شعوره للطرف الآخر، وكان يحلم دائما بامرأة تغازله، وتطارده، وتقع فى هواه. وكان إحساسه بالحب إحساسا سينمائيا، فهو يبحث دائما عن حب من هذا النوع الذى يظهر فى أفلام السينما، وينتهى غالبا بمأساة.

وكان يكتب خطابات غرامية أحيانا ويرسلها لنفسه، وكان حريصا على قراءة هذه الخطابات لى، وعندما كان يبدو علىّ أحيانا أننى غير مصدق، وعندما يغلب علىّ الضحك، يقوم الشيخ قطامش وينهال علىّ شتما. وكنت أحاول تهدئته، وأقول له مداعبا: إن الخطاب ياعبدالحميد مكتوب بأسلوب لا يمكن أن يكون لامرأة، فهو مستوف لكل الشروط التى وصفها الفراهيدى وابن منظور، وصاحبة الخطاب لابد وأن تكون خريجة كلية اللغة العربية بالأزهر (لم يكن فى الأزهر طالبات فى ذلك الحين).

وكان يضحك بعمق عندما أسأله: هل وقع سيبويه فى غرامك؟ ولكنه بالرغم من هذا الموقف الحاد من الجنس الآخر، كان يبدو سعيدا للغاية إذا ضمه مجلس به سيدات. وكان على استعداد للزحف على ركبتيه ليلبى إشارة من امرأة تعامله بشىء من الحنان أو تبدى نحوه شيئا من الود!

وبالرغم من حرصه الشديد، كان على إستعداد لأن ينفق آخر قرش فى جيبه لتلبية أى طلب يأتى من جانب امرأة.

وهذه النفس المعقدة الحساسة إلى درجة شديدة، كانت هى حجر الزاوية فى ظاهرة قطامش، فقد كان لا يفتح فمه بكلمة إذا ضم مجلسه فردا واحدا لا يعرفه معرفة وثيقة، وكان لا يسب إلا من يحبهم من أصدقائه. وكان يخشى الحكومة، ولكنه لا يستطيع الكف عن نقدها. وكان مثاليا، ولكن تصرفاته الشخصية أكثر من واقعية. وكان يتجنب رؤية الدماء والأشلاء. فى الوقت الذى كان فيه شديد القسوة لا يرحم.

صندوق المتناقضات الذى فى داخله، هو الذى أنتج فى النهاية هذا الرجل الساحر الساخر، الذى لم يكن له مثيل فى زمانه على الإطلاق.

وكان دائم المزاح مع أصدقائه، ويلجأ أحيانا إلى مزاح من نوع ثقيل، يؤلم ويجرح، إذا عاتبه صديق أجاب بأنه لا يقصد شيئا إلا المزاح، وأن النكتة «حبكت» وأن الفرق بين الصديق والعدو، هو أن الصديق يبلع لصديقه أخطاءه المقصودة فما بالك بالخطأ غير المقصود. ولكن الويل لمن تسول له نفسه المزاح مع عبدالحميد بنفس الطريقة، لقد قاطع صديق عمره زكريا الحجاوى ثلاث سنوات متصلة بسبب مزاح بدأه عبدالحميد فرد عليه زكريا بنفس الأسلوب، فكانت القطيعة!

وأصل الحكاية أن زكريا الحجاوى كان جالسا فى مقهى عبدالله مع مجموعة من أصدقائه وتلاميذه، ولم يكن من بينهم أحد من أصدقاء

عبدالحميد، وفجأة دخل عبدالحميد المقهى، وألقى نظرة على الجالسين، فهب زكريا فى احترام مبالغ فيه، وهى عادته عندما يكون فى جلسة مع بعض معارفه الجدد، ورحب زكريا بعبد الحميد بكلمات تحمل كل الاحترام والتقديس. ووقف قطامش بعيدا عن زكريا وهو فى غاية الجد وقال: (لسه قاعد بتنصب يازكريا، يا حقير بنى أمية، يا ابن الـ....)، ثم بصق على زكريا وانصرف!

موقف لاشك عانى منه زكريا بعض الوقت، وبالتأكيد لم يجد تبريرا لهذا الموقف، وخصوصا وأن الذين كانوا يجلسون معه كانوا يعرفون زكريا قليلا، ولا يعرفون قطامش على الإطلاق.

ومرت شهور طويلة بعد ذلك، ثم سنحت فرصة لزكريا الحجاوى لينتقم، فقد صعد زكريا إلى «الباص» عند محطة الباشا فى منيل الروضة، وكان «الباص» مزدحما والجو خانقا، وشديد الحرارة. ولمح زكريا وسط الركاب الشيخ قطامش يقف مع مجموعة من المحامين الشرعيين. واقترب زكريا من أحدهم وسأله «هوه الأستاذ اللى واقف هناك ده يبقى عبدالحميد قطامش المحامى الشرعى؟» فأجاب الشيخ بالإيجاب، وصرخ زكريا صرخة شديدة «يالص، ياكذاب، يامنافق ياقطامش. تذهب إليك زوجتى بتوكيل خاص، لترفع لها قضية طلاق منى فتغازلها غزلا معيبا يامنافق ياشيطان». وبهت المشايخ جميعا، فقد كانت هذه التهمة هى أم الكبائر فى مهنة تقوم أساسا على إحترام أعراض وأسرار الناس، ولم يكن للقصة أصل من الحقيقة طبعا ولكن

زكريا اندفع في تمثيل الدور، وعبثا يحاول المشايخ تهدئته دون جدوى، وثار الركاب الآخرون على الشيخ قطامش وكادت تحدث كارثة، وانتهز زكريا فرصة الهرج الشديد الذي حدث فقفز من «الباص» واختفى.

وعبثا حاولت الصلح بينهما دون نتيجة. كان قطامش شديد الغيظ مما حدث، وكان يقسم كلما فاتحته في الموضوع أنه لن يخاطب زكريا حتى الموت، ولكني انتهزت فرصة مواتية، وتعمدت استفزاز قطامش عندما قلت له: يخيل إلى أن هناك سببا لا ندريه في موقفك المتشدد والغريب من زكريا. وقال قطامش عندك حق. فأنا وجدتها فرصة لأقاطع زكريا الحجاوي إلى الأبد، ولما سألته عن السبب الحقيقي، تنهد في أسى وقال: إن زكريا يحقد عليّ حقدا شديدا، وارتسم شبح ابتسامة على شفتي، ولكنه واصل حديثه في جد شديد: لا تظن أني أمزح أو أعبث يامحمود، الحقيقة أن زكريا يحقد عليّ حقدا شديدا، والسبب أنه عديم الأصل وفقير، وهو لم يتعلم شيئا ولم يستفد شيئا، كما أنه ضائع وصائع... ثم هدأ انفعاله قليلا، وصمت لحظة، ثم قال في هدوء: وأنا كمان كده ياأخويا، وهو عاوز يبقى كده لوحده! عشان كده بيحقد عليّ وضحك قطامش ضحكة عميقة وصافية نابعة من القلب، ونهض معي إلى بيت زكريا الحجاوي، وكانت سهرة لا تنسى.

ولقد ظللت خلال رحلة ضياعي بعيدا عن مصر، أشعر بحنين شديد إلى أربعة من الأصدقاء، زكريا الحجاوي، وعبدالرحمن الخميسي، ومحمد عودة، وعبدالحميد قطامش. وقد رأيت «الخميسي» كثيرا في المنفى، وسعدت برؤية محمد عودة مرات، وسافرت إلى الدوحة

خصيصا لرؤية عمنا زكريا الحجاوى، ومن غرائب الصدف أنه مات بعد زيارتى له بالدوحة بأشهر قليلة، غير أن الفرصة لم تتح لى أبدا، لرؤية عبدالحميد قطامش، فهو لم يخرج من مصر قط وأنا لم أذهب إلى مصر طوال مائة شهر وشهر. ولذلك كنت أحيانا أتذكر قطامش فى غربتى، وأشعر بخوف شديد أن يموت قطامش دون أن أراه.

ومنذ أشهر قليلة التقيت بالمستشار الثقافى الكويتى بالقاهرة، واكتشفت أنه كان يبحث عنى بشدة، فقد كان يحمل خطابا من قطامش إلى العبدالله، وقرأت سطوره وبكيت: «يا محمود عد بسرعة، فأنا فى حاجة إليك. لقد مات كل الأصدقاء ولم يبق إلا أنا وأنت. لقد رحل أنور المعداوى، ورحل محمود حسن اسماعيل، ورحل زكريا الحجاوى، ورحل عبدالعظيم بدوى، وهاجر محمد على موافى والخميسى، واختفى نعمان عاشور لا أدرى أين؟... عد حتى أراك، فأنا أشعر فى داخلى أن العمر قد ولى، فأخشى أن أموت دون أن أراك!».

وأمسكت بالقلم وكتبت كلمات قليلة لعبد الحميد: «إثبت أيها الرجل، فسيكون فى استطاعتى أن أراك قريبا عندما يأتى الفرج من عند الله، وأنت تعرف الظروف التى تمنعنى من العودة، ولكنى واثق أنها ستزول قريبا بإذن الله الواحد القهار. إثبت يا عبدالحميد ولا تكن نذلا كعهدى بك فترحل قبل أن أراك!!».

وبعد شهور قليلة من تحريرى هذا الخطاب، عثرت على ورقة من صفحة قديمة من جريدة الجمهورية المصرية تحولت فى النهاية إلى

قرطاس يحوى بعض الفاكهة. ولا أدرى ما الذى جعلنى اتفحصها وأقرأ سطورها، وخفق قلبى بشدة على نعى الشيخ عبدالحميد قطامش منشورا على استحياء.

يالها من لحظة خاطفة تجسدت وتبلورت فيها ذكريات عشرات الأعوام. والغريب أننى انفجرت باكيا بشدة عند سماعى نبأ وفاة زكريا الحجاوى، ولكن مع قطامش كان الأمر يختلف، لم أبك، ولم تختلج عضلة واحدة فى جسمى، كأنما أصابنى شلل مفاجئ، وبقيت هكذا فى حالة انعدام وزن عدة أيام.

لقد انطوت بوفاة الرجل، صفحة كاملة خطيرة ومثيرة وحافلة، فما كان أعرض حياته وأعمق صلاته، وكم شهدت ليالى القاهرة سهراته التى كانت تجلجل فيها ضحكاته، وتطيش خلالها تعليقاته ولذعاته، وقفشاته، ونكاته التى تجرح وتسيل الدم. ولا أعتقد أن ركنا فى مدينة القاهرة لم يشهد سهرة لقطامش، ولا أعتقد أن أحدا من الذين عاشوا فى القاهرة خلال نصف القرن الأخير هذا لم يتعرف على قطامش أو لم يسمع به.

وبالرغم من ذلك مات فى هدوء وانسحب من الحياة فى صمت، ونعيه نشر فى جريدة الجمهورية فى عدة سطور لا تلحظها العين.

مسكين عبدالحميد قطامش.. عاش كالمهراجا ومات كالصعلوك، لأن الزمن الذى مات فيه، هو أردأ زمن مر على مصر، زمن لمع فيه الطين، واختفت فيه النجوم. لم يكن هذا زمان قطامش، ولكنه كان زمن

توفيق عبدالحى، ورشاد عثمان. ولعل الموت كان أعظم هدية لقطامش الذى لم يستطع إحتمال الحياة فى مصر، ولم يستطع أن يغادرها، وقنع أخيرا بعدة أشبار فى تراب مصر.

□□

شاعر لكل العصور

كان شاعرا عظيما.. هو بالقطع أهم شعراء مصر بعد أحمد شوقى، وهو بالتأكيد الذى مهد الطريق لظهور الأجيال الجديدة من الشعراء.. لقد كان الجسر الذى عبر بالشعر من مرحلة الألفاظ إلى مرحلة الأحاسيس، ولكنه، رغم موته، واختفاء الخلافات والنزاعات معه وحوله، لم يحصل على حقه بعد، ولم يحتل مكانته التى يستحقها عن جدارة.. لقد ضيعناه حيا وأهملناه ميتا.. وهى جريمة أدبية كبرى..

خاصمت شاعر«قهوة عبدالله» قبل أن أراه.. السبب أننى كنت صديق زكريا الحجاوى، وكان رأى الحجاوى فى الشاعر ليس على ما يرام. ولم يكن رأى زكريا فى شعر الشاعر ولكن فى الرجل نفسه كإنسان.

كان يصفه بالشرير وكان يلقبه أحيانا بالعفريت، وسمعت نفس الرأى من آخرين غير زكريا، فأعلنت الحرب على الرجل قبل أن أراه! وحدث

ذات يوم أن نشر الأستاذ عزيز أحمد فهمي وهو واحد من أعظم الكتاب الساخرين الذين ظهروا في هذا القرن العشرين، ولكنه ضاع في أزقة التاريخ بسبب ظروف سياسية صغيرة، وظروف شخصية قاسية ليس هنا مجال ذكرها على أية حال. أقول نشر عزيز سلسلة مقالات في جريدة المصرى بعنوان.. «يوميات الرجل الذئب»، وكانت صورا قلمية شديدة القسوة عن رجل يرتدى ثياب آدمية ويحمل بين جوانحه نفسية ذئب مفترس هوايته الوحيدة افتراس بنى الإنسان. وعندما سألت عزيز فهمي عمن يقصده بهذه المقالات المثيرة قال إنه يقصد شاعر «قهوة عبدالله». وراح يقص على مسامعى عشرات القصص عن الشاعر وعن المآسى التى تسبب فيها لعزيز ولغيره من الكتاب، ولذلك تعاملت مع الرجل بحذر عندما جمعتنا الظروف معا فى قهوة عبدالله، وتطاولت أحيانا محاولا إستفزازه، ولكنه واجه محاولاتى بهدوء وببرود أحيانا! وعندما قرأت له أول ديوان شعرى.. لم أنم ليلتها على الإطلاق. قرأت شعرا حقيقيا منحوتا من نفس صاحبه ومكتوبا بمداد من دم الشاعر، لم يكن من نوع الشعر إياه الذى تقرأه فتنساه! كان أشبه شيء بشعر المتنبى لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل له أحاسيس ومشاعر خاصة ودنيا له وحده ومختلفة عن دنيا الناس، كانت تعابيره غريبة ورؤيته فريدة وعباراته الشعرية وحيدة غير مسبوقة ولا مطروقة. واحترت فى أمر الرجل وارتبكت علاقتى به فأنا أحبه كشاعر وأكرهه كإنسان، وإن كانت علاقتى به كإنسان لا تدعو إلى هذه الكراهية على الإطلاق.

ولكن ذات مساء قدر لى أن أشهد حادثة كانت هى السبب فى اقترابى من الرجل وتوثيق علاقتى به، فأصبحت أكثر تفهما له وأكثر حبا وإشفاقا عليه.

كنا جلوسا على المقهى وقت الغروب، حين اقترب منا رجل يرتدى جلبابا وطاقية، وله شارب كثيف أخفى نصف وجهه، سلم على الشاعر وجلس على حرف المقعد وسلمه لفافة صغيرة مغلقة بورق سوليفان، ودس الشاعر يده فى جيبه وأخرج جنيهين أعطاهما للرجل الذى تناولهما فى هدوء ثم انصرف. وفتح الشاعر اللفافة وتناول جزءا مما فيها دسه فى فمه، ثم راح يلوكه على مهل وقد سرح فى الفضاء.

ولعل هذا الاتجاه الخاطئ فى حياة الشاعر كان السبب فى كل ما تعرض له من مشاكل أدبية وإنسانية.

وقد علمت أن الشاعر مدمن على هذا الصنف، وأنه وسيلته للانفصال عما حوله من مشاكل ومتاعب وزحام. كان يجلس بالساعات على المقهى لا يتكلم، مكتفيا بالتحديق فى لاشىء مستغرقا فى التأمل. وكان فى بعض الأحيان يصدر أصواتا خافتة، وأتصور أنه يخاطبنى ثم أكتشف أنه يخاطب نفسه! وكان يطلق على زكريا الحجاوى لقب «جواب الآفاق» وعلى أنور المعداوى وصف «العمدة» وعلى عبدالحميد قطامش وصف «المختال»! وكان رزقه محدودا، ولكنه كان فى الوقت نفسه قليل السعى لزيادة هذا الرزق على عكس الآخرين. ولذلك كان وقته محصورا بين بيته وقهوة عبدالله ومكتبه فى الوزارة، ونادرا ما شوهد

فى مكان عام أو حفل رسمى أو بعيدا عن هذه الأماكن الثلاثة! حتى عندما قامت ثورة ١٩٥٢ لم يبالغ فى تأييدها، صحيح أنه أعلن تأييده لها، ولكن على مهل وبصوت خافت. فقد كان عازفا عن الشهرة واحتلال مكان فى الصدارة كان همه كله أن يعيش فى هدوء، مكتفيا بالبحلقة فى الفراغ، والتأمل فى الفضاء والتحدث إلى نفسه بين الحين والآخر!

وعندما توطدت الصداقة بينى وبينه سألته عن سر كراهية أبناء جيله له فأجاب ببساطة وشبح ابتسامة تلوح على شفتيه: لأننى جحش! ولما سألته تفسيرا أوسع، قال: كان لى رأى فى إنتاج كل منهم وصارحتهم برأيى، ولو أننى كتمته لصرت فرخة بكشك عند الجميع! كان مثلا يرى أن عزيز أحمد فهمى هو أوسكار وايلد العرب. ولكنه بدلا من اهتمامه بفنه، اهتم بخدمة بعض الجهات فاستأجروه للسخرية من الزعيم الوطنى مصطفى النحاس، وكتب ضده ما لو كتب فى موضعه لحقق له الخلود. وكانت النتيجة ضياعه بسبب مؤامرة حبكت ضده، وساعد هو نفسه على تحقيقها. وكان رأيه فى زكريا الحجاوى أنه واحد من أعمدة القصة المصرية القصيرة. وأنه كتب القصة القصيرة قبل يوسف إدريس، وأنه هو ومحمود البدوى ويحيى حقى وطاهر لاشين الآباء الروحيين لهذا الفن العظيم، ولكن زكريا لقلة صبره وشدة ضعفه لنزواته ترك فنه الحقيقى واشتغل بالصحافة مع أنها أبعد ما تكون عن طبيعة زكريا وموهبته. ثم ترك الصحافة واهتم بالفن الشعبى. ولو بذل نصف هذا الإهتمام بفنه الحقيقى لصار له شأن آخر!

ولكن هذا السبب لم يكن وحده هو سر كراهية أبناء جيله له. لقد ذكر لى الشاعر نصف الحقيقة وأهمل الآخر. فلم يكن الشاعر يصارح أصدقاءه برأيه، ولكنه كان يقول هذا الرأى نفسه لو سأله أحد آخر. مثلا سأله صاحب جريدة الشاعر عن رأيه فى عزيز أحمد فهمى، وكان عزيز قد تقدم طالبا عملا فى الجريدة، فقال الشاعر رأيه الصريح لصاحب الجريدة فامتنع الرجل عن تشغيل عزيزا! وسئل الشاعر مرة عن زكريا الحجاوى وكان مرشحا لعضوية لجنة من اللجان فأجاب بأن زكريا لا علاقة له بعمل هذه اللجنة، وأنه مجرد كاتب قصة كبير! فاستبعدوا زكريا من عضوية اللجنة. وعندما صارحته بما أعلم قال: طيب ودى فيها إيه؟ لقد قلت رأيى الحقيقى وصارحتهم بما أعتقده، وكان ذلك لمصلحة العمل ولمصلحة أصحابى أيضا!!

لم يكن «الشاعر» من أبناء هذه الدنيا، ولم يكن مسلحا بأسلحتها اللازمة لكى يشق الإنسان طريقه فى الحياة. كان شاعرا عظيما، وكان يعتقد أن شعره وحده هو الكفيل بوضعه فى المنزلة التى يرجوها. لكن الحياة ليست شعرا فقط. قد يكون الشعر هو مسوغات تعيين الشاعر فى مكانه الطبيعى بعد الموت. ولكنه اثناء حياته، الشاعر والأديب والكاتب والفنان يحتاج إلى أسلحة أخرى غير فنه لكى يحرز مكانا لائقا فى الحياة. ولذلك نجد الشاعر بالرغم من عبقريته الفنية فإنه لم يستطع أن يحقق حلمه الأبدى بأن يكون له بيت مستقل إلا بعد جهد شديد، كان هو السبب المباشر فى هلاكه قبل الأوان، لقد بدأ فى بناء البيت ولم يستطع إتمامه. وراح يجرى على دوائر الحكومة يطلب كميات من الحديد

والأسمنت والطوب، تعطى لمن هم أقل منه شأنا وأقل ذكرا، ولكنه لم يستطع الحصول على مايريد. لم تكن شهرته قد وصلت إلى طبقة السادة المستوظفين، ولذلك كانوا ينظرون إليه ببلاهة، ويندهشون لمسلك هذا الأفندى الغائب عن الوعى المتأمل فى لاشىء، الذى يطلب حديدا للتسليح وأسمنت للبناء! وشكا لى ذات مرة من أنه ذهب إلى رئيس مجلس مدينة الجيزة حسين الألفى فعامله معاملة سيئة ولطعه على الباب فترة طويلة ثم رفض طلبه معتذرا بأن كل مواد البناء مسخرة لخدمة المعركة! وقلت للشاعر الكبير الطيب الساذج البعيد عن دنيانا: وهل حدثته عن ديوانه الأخير؟ قال ديوان من؟ قلت ديوان رئيس مجلس المدينة؟ قال وهل هو شاعر؟ قلت ياسبحان الله. إنه شاعر فحل لم تنجب الجيزة مثله، وديوانه الأخير «الشمس طالعة» أحدث دويا فى كل مكان خصوصا فى ديوان المحافظة!! ولقد ساءه أن شاعرا كبيرا مثلك يذهب إليه يطلب حديدا ولا يشير من قريب أو بعيد لديوانه الجديد! قال الشاعر الكبير: وماذا فى الديوان، قلت: قصائد كلها عن المعركة ولا صوت يعلو فوق صوتها ولا رأى بعد رأيها، ثم هو فى النهاية أشبه بديوان الحماسة لأبى تمام!! قال: هل عندك نسخة؟ قلت: أعتقد أن لدى نسخة من الديوان وسأفتش عنها لك، ولكن يكفى أن تذهب إليه غدا وتقابله وتحدثه عن ديوانه وتعده بأنك ستنقده نقدا مفصلا عما قريب، وستأخذ منه كل ما تطلبه من حصة الأسمنت والحديد! ولم يكن حسين الألفى شاعرا ولم يكن له ديوان. وأشهد بأنه كان أكفأ من تولى هذا المنصب، وأنه أفاد الجيزة وأهلها، وأنه كان نموذجا لرئيس المدينة الحريص على مصلحة

المدينة ومصالح الجماهير. واتصلت بحسين الألفى وحكيت له «المقلب» الذى دبرته للشاعر. وأبدى حسين الألفى أسفه لأنه لم يتعرف على الشاعرالكبير ولم يقدم له ما يرجوه!

وعندما ذهب الشاعر فى اليوم التالى استقبله حسين الألفى مرحبا، وأعطاه حصته المطلوبة. بينما كان الشاعر منهمكا فى الحديث عن ديوان «الشمس طالعة» الذى وضعه الشاعر الكبير حسين الألفى!!

وعندما أدرك بعد فترة أنه كان مجرد مقلب من مقالب العبدلله راح يضحك بصوت عال، ويقول ما أظرفه من مقلب لأنه كان السبب فى حل المشكلات!

ولم تهدأ نفس الشاعر إلا عندما خرج على المعاش وسافر إلى إحدى البلادالخليجية وعمل هناك، لعله ذاق طعم الاستقرار لأول مرة فى حياته. لعله ذاق طعم أن يكون لديه فائض من المال. وراح يؤلف قصائد ويلقيها على جمهور من عشاق الشعر فى أمسيات متباعدة. ولعله أيضا فى هذه الأمسيات ذاق حرارة اللقاء بين الشاعر وعشاق الشعر. لعله أدرك لأول مرة فى حياته فائدة الاندماج بين الشاعر وجمهور الناس. لقد عاش فى مصر أغلب حياته فى شرنقة نسجها حول نفسه. كان يخاف الزحام، ويخشى الجموع، ويتحاشى الاجتماعات، ولكنه فى غربته خرج من شرنقته وسبح فى تيار البشر. وعندما اجتمعنا ذات مساء وسألته أن يكتب لى مذكراته لأنشرها فى جريدة السياسة على

حلقـات.. سرح فـترة ثم قـال: فكرة لابأس بها لو تمكنت من كـتابتـها، لأنها تحتاج إلى طقوس خاصة لا أظننى قادرا عليها الآن. وطمأنته بأن كتابتها يسيرة وما عليه إلا أن يبدأ ليفيض بعد ذلك نهر الذكريات. فهز رأسه ولاك شيئا فى فمه وقال: سنحاول على كل حال. فى تلك الليلة تذكرنا زكريا الحجاوى وعبد الحميد قطامش وأنور المعداوى وشلة قهوة عبدالله الذين انتقلوا إلى رحمة الله. وهز الشاعر رأسه وقال: رحمهم الله، سبقونا إلى دار الاستقرار وتركونا فى دار القلق. قلت: وهل لاتزال تشعر بالقلق. وابتسم ابتسامته الشهيرة وقال.. القلق لم يعد شعورا عندى. ولكنه صار عضوا من أعضائى، إذا أردت التخلص منه فلابد من بتره، وإذا بترته فلابد أن اتخلص «أولا من الحياة»!!

وكانت هذه الليلة هى آخر عهدى بالشاعر، فلم تمض أيام حتى سقط ميتا بالسكتة القلبية فى الكويت.

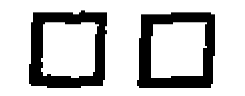
ورحل عن دنيانا شاعر عظيم هو بالقطع أهم شعراء مصر بعد أحمد شوقي. وهو بالتأكيد الذى مهد الطريق لظهور صلاح عبدالصبور وحجازى وأمل دنقل.

لقد كان هو الجسر الذى عبر بالشعر من مرحلة الألفاظ إلى مرحلة الأحاسيس.

ولكنه وبالرغم من موته، واختفاء الخلافات والصراعات، لم يحصل على حقه بعد، ولم يحتل مكانته التى يستحقها عن جدارة واستحقاق!

لقد ضيعناه حيا وأهملناه ميتا! وهى جريمة أدبية كبرى، لأنه برغم الاتجاهات والمعتقدات كان أهم شاعر فى عصرنا، وكان أعظم من غنى فى سمع الوجود، وستظل أغانيه تتردد لتشنف آذان الأجيال إلى آخر الزمان!

رحم الله الشاعر الذى اعتزل زمانه ليحلق فى فضاء كل العصور.



الفـــــــلاح

إذا كـان أنور المعـداوى هو النمـوذج الأفـضل فى قـهـوة عبـدالله، وزكـريا الحـجاوى هو الـفنان، وقـطامش هو المتكلم، وعبـد القـادر القط هو الطيب، فالأستـاذ محـمود شـعبـان هو الفلاح. هو فلاح حقيقى وأصيل وبدون إدعاء. وهو الوحيد الذى كان يعرف العيب. ويتمسك حقا بأخلاق القرية! ومحمود شعبان فى الأدب ربما لم يترك الأثر الذى سيخلد على مر الزمان. ولكنه كنموذج إنسانى سيحتل مكانه فى الصدارة وسيكون مثلا ينبغى أن يحتذى. وقصة محمود شعبان هى تطبيق للمثل المصرى الشعبى «الدنيا متديش عايز»، ولما كان محمود شعبان «مش عايز» أى شىء، فقد أعطته الدنيا كل شىء. أصبح أديبا ولم يكن يريد ذلك، وحصل على الشهرة ولم يكن يسعى إليها، وأصبح يملك المال ولم يكن فى لهفة إليه! وهو أصبح ثريا عن طريق لم يتعمده، ففى الخمسينات من هذا القرن كتب محمود

شعبان قصة طويلة بعنوان «زهرةمن الجزائر» لم يلتفت إليها النقاد ولم يكتب عنها أحد. ولكن وزارة التربية والتعليم رأت أنها قصة ممتازة، وأنها تستحق أن تعمم على طلبة الثانوية العامة. واشترت الوزارة حق طبع عدة ملايين من قصة محمود شعبان ليصبح شعبان ثريا خلال أربع سنوات. واشترى شعبان الفلاح ضيعة صغيرة فى قريته، وشيد بيتا جميلا فى مصر الجديدة. واشترى أسطولا صغيرا من سيارات الركوب وصار له دخل محترم، وحقق ما يكفى لاستقراره وسعادته معا. ولكنه لم يغير عادة واحدة من عاداته، ولم يتنكر لصديق من أصدقاء الماضى ولم يتخلَّ عن صديق فى محنة ولم يتردد عن مساعدة صديق فى حاجة إليه.

وموقف محمود شعبان من أنور المعداوى فى محنته يجب أن يروى، لتتعلم الأجيال الجديدة أن الحياة فى أحلك فتراتها كانت تشع بالنور رغم العتمة وتنضح خيرا رغم حجم الشر الذى كان يعشش فى أركانها.

فعندما أطاح «س» يوما بالمرحوم أنور المعداوى، وفصله من وظيفته وأراد له أن يركع عن طريق التجويع، كان محمود شعبان هو السبب فى صمود أنور المعداوى، وبفضله لم يستسلم أنور المعداوى ولم يركع.

فقد ظل محمود شعبان يصرف مرتب أنور المعداوى كاملا خلال السنوات الثلاث التى توقفت فيها وزارة التربية عن صرف مرتبه. وفى أول كل شهر كان أنور المعداوى يتسلم ٤٦ جنيها و٨٣ قرشا بالتمام

والكمال. ولم يعرف هذا التصرف إلا حلقة ضيقة من الأصدقاء. ولم يصل السر إلى هؤلاء الأصدقاء عن طريق شعبان، ولكن أنور المعداوى هو الذى أذاع السر لهم، ولم يكن فضل شعبان مقصورا على صرف النقود فقط. ولكن الفضل كان فى شجاعته، وفى وقت بدأ فيه الأصدقاء يهربون من أنور المعداوى ويتحاشون الظهور معه فى مكان عام. فأنور المعداوى كان مفصولا من السلطة ومراقبا أيضا. وكان هو نفسه شديد النقمة على الأوضاع فى مصر عموما، وعلى الأوضاع فى الحقل الأدبى على وجه الخصوص، ولم يكن يخفى غضبه أو ثورته، وأحيانا كان يتعمد إعلان رأيه عندما يشعر بأن العيون تلاحقه والآذان تحيط به فى المكان الذى يجلس فيه. ولذلك آثر بعض الأصدقاء أن يبتعدوا عن طريقه، وانشغل البعض الآخر بأعماله، أو تظاهر بالانشغال إيثارا للسلامة وطلبا للأمان. ولكن شعبان الفلاح لم يتخلف يوما عن حضور مجلس أنور المعداوى فى قهوة عبدالله، ولم يتخلف شهرا عن دفع مرتبه. ولم يتوان لحظة عن توفير احتياجات أنور المعداوى. ودون أن يذكر ذلك مرة واحدة لأحد! ونفس الموقف اتخذه مع أكثر من صديق، مع زكريا الحجاوى وآخرين لا داعى لذكر أسمائهم لأنهم لا يزالون على قيد الحياة. وأغرب شىء أن شعبان لم يكن له وجهة نظر محددة فى السياسة، ولكنه كان يقف إلى جانب كل مضطهد من أى اتجاه. كان يساند الاشتراكى واليمينى والتقدمى طالما أنه فى محنة ويعانى بسبب ما يعتقده من آراء. ونادرا ما كنت ترى شعبان فى فترات صفوه، ولكن المؤكد أنك ستراه إلى جانبك فى لحظات الضيق. كان فى الإذاعة فى

فترة الستينات مخرج مزعج للغاية، وكان مرتشيا وتدهور به الحال إلى حد فرض الإتاوات. وبالتأكيد كان شعبان أحد ضحاياه، فابتعد شعبان عن التعاون مع الإذاعة فترة، ولكن بعد أن فصلوا المخرج من عمله لم يتخلف شعبان عن زيارة المخرج فى منزله مرة كل أسبوع حاملا معه كل ما تستطيع يداه حمله من الطيبات. وكان يخصص للمخرج المزعج إياه مبلغا معينا من المال كل شهر يعينه على مواجهة أعباء الحياة! ولا يعرف غير عدد قليل من الأصدقاء أن محمود شعبان أنفق مبالغ كبيرة من ماله الخاص لطبع الإنتاج الأول لكتاب ناشئين لا تعترف بهم دور النشر. أذكر مرة أننى سخرت بقسوة من كاتب شاب يدعى محمد أبوشنب. قدمه لى يوسف السباعى، وطلب منى أن أكتب له مقدمة كتابه الأول وكان بعنوان «قصص من الحياة». وقرأت القصص التى هى من الحياة واكتشفت أن الشاب إياه كاتب من النوع الموهوم وليس من النوع الموهوب، وأن علاقته بكتابة القصة كعلاقة العبدلله بلعبة الكاراتيه! وكانت القصة الأولى بعنوان «زوجتى فى الحديقة»، والقصة الثانية بعنوان «يابوليس الآداب». والقصة الثالثة بعنوان «ياخائنة»، كان واضحا أنه متأثر بيوسف وهبى، أو يوسف وهبه كما كتبها هو بالفعل فى الكتاب. وحبكت معى النكتة فكتبت مقدمة للكتاب من نوع «هذا الكتاب المتقدم على الفصيلة الأولى مترنحا على الأفق، منسابا نحو الأعلى متضاربا مع المجموعة الأولى فى سبيل الحنجورى المتدافع فى الشنجورى المتألق على قفا الشفق»! وتصورت أن الكاتب إياه عندما يقرأ مقدمتى سيدرك أننى كاتب عابث بقدر ما هو كاتب هايف وسيلقى

بالمقدمة فى سلة المهملات. ولكنى فوجئت بعد أيام بالكتاب يباع فى الأسواق، وبمقدمة للأستاذ الكبير محمود الصعيدى عضو جماعة كبار الأدباء، وكنت قد انتحلت هذا الاسم لنفسي. ووقعت نسخة من الكتاب فى طريق كامل الشناوى فكانت فاتحة خير للكتاب. تولى كامل الشناوى الدعاية للكتاب باعتباره مهزلة العصر فنفدت جميع النسخ من الأسواق فى أيام. وساعد على ذلك أن يوسف السباعى كتب مقالا شرح فيه قصة الكتاب والمقدمة بعنوان «مطلوب قانون لحماية المغفلين من محمود السعدنى».

ولكن محمود شعبان الفلاح لم يجد فى الكتاب مهزلة عصرية كما رأى كامل الشناوى، ولم ير فى المؤلف الشاب مغفلا كما رأى يوسف السباعى، فقد كان يعتقد أنه مؤلف سيئ الحظ، وأن الكتاب مجرد محاولة رديئة لكتابة القصة وسارع بالاتصال بالمؤلف وساعده ماديا على إصدار كتابه الثانى والأخير! ولم يقطع شعبان جذوره بالقرية التى أنجبته، كان يحيى ليالى المولد فى القرية ويساهم فى أفراح الفلاحين ويسعى لتوظيف البعض، وفى حل مشاكل الرى والزراعة والعلاج والتعليم! وعاش شعبان يسعى كمؤسسة بمفرده، وربط خيوطه بالجميع دون أن يتأثر بأحد أو يتبع خطوات أحد. ولم يحاول مرة واحدة أن يتدخل فى شئون أحد لا بالزجر ولا بالنصيحة، وتوقف دوره عند حد المساعدة والتدعيم. ذات مرة اضطر أن يدفع مبلغا كبيرا من المال لإحدى السيدات حتى لا تتقدم بشكواها إلى جهات الاختصاص ضد أديب مشهور بنزواته الغرامية. كانت السيدة المجنى عليها فقيرة وجاهلة

أيضا. وكانت تعمل فى حياكة الملابس المسرحية فى مسرح صغير حين التقت بالأديب إياه. وبالطبع نقلها الأديب المشهور إلى عوالم أخرى جديدة وباهرة، وجنت المرأة التى كانت فى الأربعين من عمرها وتجيد صنع «المحشى».. جنت بالكلمات السحرية التى كان يهمس بها فى أذنها عن الأغوار السحيقة فى عينيها والأحلام الدافئة التى تشعها لمن يقترب منها، وعن الموسيقى التى تختلط وتنبعث من صوتها، بينما كان صوتها يعانى من بحة على أثر برد مزمن وقديم. فطلقت المرأة زوجها وتخلت عن أولادها وباعت مصوغاتها فى سبيل الفارس الجديد. ثم تبخرت الأحلام فجأة فإذا بالأديب فص ملح وداب، وإذا بقصة الحب الخالدة تموت بالسكتة فجأة. ولجأت المرأة إلى كل أصدقاء الأديب، فمنهم من نصحها بالصبر ومنهم من وبخها بقاسى الكلام ومنهم من حرضها على الأديب إياه، ولكن شعبان رد للمرأة مصوغاتها وكان هذا عاملا مهما فى تجميد الموقف عند هذا الحد، ولما سألت محمود شعبان هل فاتح الأديب إياه فى الموضوع، نفى ذلك بشدة، وسألنى: ولماذا أفاتحه؟ قلت: لعله يكف عن هذا الطريق!؟ قال شعبان فى هدوء: ولماذا يكف إن هذه هى طبيعته. وكل ميسر لما خلق له، وهو يفعل ما يسعده، وليس هناك فائدة ترجى من نصحه، فهو ليس شابا فى بداية العمر، إنه رجل فى نهاية الرحلة، ثم ما جدوى أن يغير من عاداته السيئة الآن وقد فات الآوان.؟!.

منطق الريفى صاحب التقاليد والأصول، يتدخل للمساعدة فقط، ولستر العورات فقط وليس للمنظرة أو الدخول فى الصورة أو كسب

أصوات الناخبين!. ولكن الغريب فى الأمر أن الأديب الريفى الذى يعرف الأصول فرضت عليه عزلة قاتلة فى أيام العيب وأخلاق القرية. اختفى الأصلاء فاختفى معهم، وغاب المعدن الحقيقى فكان لابد أن يغيب، وطغى على سطح الحياة شوائب ونوائب وفى كل مجال، توفيق عبد الحى فى عالم التجارة، والكفراوى فى عالم التهليب، وأحمد عدوية فى دنيا التطريب، وأصبح على برعى هو الكاتب والأديب ولم يجد شعبان بدا من الإختفاء، إحتمى بقريته فى آخر الأمر، واكتفى بكتابة برامج دينية للإذاعة بين الحين والآخر. ظاهرة تثبت أن الذين رفعوا الشعارات لم يكن لهم أى صلة بها ولم يكن لديهم إيمان بأى شىء على الإطلاق. لقد كانوا يرددون الشعارات ويفعلون غيرها، فخلت مصر من كل قيمة وجفت من كل تيار إلا تيار الإسترزاق، ودخلت فى نفق مظلم، وفى الظلام تستوى الأشياء ويصبح كل شىء مثل أى شىء. واختفى من مصر زكريا الحجاوى بالموت، وأنور المعداوى بالقهر، وفتحى رضوان بالسجن، واختفى معهم أيضا محمود شعبان، اختفى وتوارى عن الأنظار إحساسا منه بالحزن لما يجرى أمامه وشعوراً منه بالأشياء التى تلطخ وجه الحياة.

ولقد آن لمصر الآن أن تلملم أبناءها وأن تضمهم تحت جناحها، وأن تنشر الدفء والضياء فى كل اتجاه، وآن للطيور المهاجرة أن تعود، الذين اغتربوا فى الخارج أو الذين اغتربوا فى الداخل أيضا، وما أبشع الغربة داخل الأوطان. ما أبشع غربة محمود شعبان الأديب الفلاح الذى يعرف العيب وتمسك بأخلاق القرية!!

محارب بلا سلاح

أول مرة رأيت فيها الخميسى كانت فى الأربعينات.. حضر إلى قهوة عبدالله ذات مساء، وقضى السهرة فى ركن أنور المعداوى، وأشاع جوا من البهجة والمرح، وعزم الشلة كلها على العشاء، ومنح جرسون القهوة مبلغا كبيرا من المال ودس فى يد الولد الذى قام بتلميع حذائه جنيها كاملا، وأعطى عباده مجنون قهوة عبدالله مبلغا من المال اكتشفنا فى الصباح أن المبلغ كان خمسة جنيهات صحيحة.. المهم أنه غادر المقهى فى ساعة متأخرة من الليل وقد وهب السعادة للجميع، حديثا، وطعاما، وهبات.

وغاب الخميسى طويلا عن قهوة عبدالله، وعرفت عن زكريا الحجاوى، أنه عاد إلى مقر عمله فى فلسطين، فقد كان يعمل فى إذاعة

الشرق الأدنى مع مجموعة من الفنانين والمثقفين العرب من بينهم سامى داود، وسيد بدير، وسليم اللوزى، وعميد الإمام.

ولم ألتق بالخميسى بعد ذلك، إلا فى جريدة الكتلة وكان قد بدأ ينشر فيها قصصا من تأليفه شدتنى إليها كثيرا، فقد كانت مختلفة عما ينشره محمود كامل ومحمود تيمور، كانت شخوص قصص الخميسى أكثر حياة وأحداثها أكثر حرارة، وكان أسلوب الخميسى نابضا بالحياة، موسيقيا وشاعريا وأشبه ما يكون بأسلوب كاتب فرنسى من العصر الرومانسى.. الساحر الغامض المثير!

وأحببت الخميسى منذ أول لقاء، كان نموذجا للفنان الذى رسمته فى خيالى، كان شديد الزهو، شديد البساطة، وعظيم الكرم، دائم الفلس، وكان يمشى دائما فى الطريق يتبعه أكثر من شخص يلازمونه كظله، ويطيعون إشارته، وكان حريصا على أن يرتدى ملابس أنيقة وغالية الثمن، وعلى العموم كان الخميسى فى مظهره وسلوكه يختلف عمن عرفت من الشعراء والأدباء والفنانين. وأحببت الخميسى من أول لقاء، ولكن صلتى به لم تتوثق إلا بعد ذلك اللقاء بمدة طويلة، قدمنى له زكريا الحجاوى وهو جالس مساء فى جريدة (المصرى) وناقشنى فى بعض ما عرضته عليه من كتابات وكان ودودا للغاية، وأبدى اهتماما شديدا بى، وبما كتبت، وكأنه صديق انقضت على صداقتنا أكثر من عشر سنوات.

ولم تمض أيام قليلة على معرفتى به، حتى كنت قد عرفت قصة حياته كاملة، وأدق أسراره، وتفاصيل مشاكله، وأحسست بصدقه، ومسح

بحديثه على جروح فى نفسى، فقد كانت نشأته الأولى شبيهة بنشأة العبدلله، وبقدر ما مسح حديثه من جروح فى نفسى، بقدر ما أمدنى بشحنة هائلة من التفاؤل والأمل، وإذا كان الخميسى ورغم كل هذه الظروف، استطاع أن يقهرها ويطفو على السطح، فحتما سيكون فى مقدورى أنا الآخر أن أصل يوما ما إلى ما وصل إليه الخميسى من مكانة وشهرة وانتشار.

كان الخميسى فى ذلك الوقت الذى حكى لى فيه قصة ضياعه وتشرده فى البلاد وهروبه من مدرسة المنصورة الثانوية، بحثا عن نفسه وعن فنه فى عاصمة فرعون... أقول.. كان الخميسى واحدا من أشهر الكتاب فى مصر على الإطلاق، إن لم يكن أشهرهم، كان ينشر قصصا مسلسلة فى جريدة المصرى واستطاع بقصصه أن يرفع توزيع الجريدة إلى ما فوق المائة ألف نسخة، وعندما دخل معركة مع محمد التابعى، وكان عميد كتاب الصحافة المصرية وقتئذ، استطاع الخميسى أن يقهر التابعى وأن ينتصر عليه، وكان يتقاضى مرتبا عن عمله فى جريدة المصرى يسيل له لعاب كل الأدباء الجالسين على قهوة عبدالله، وكان لا يتردد على قهوة عبدالله كل ليلة، ولكنه كان يسهر كل ليلة من ليالى الأسبوع مع شلة مختلفة، كانت كل الشلل خليطا من الكتاب والشعراء والفنانين، وكان حريصا على أن تظل صلاته بالجميع موصولة، فهو يتردد على الدكتور لويس عوض بين الحين والآخر، ويفاجئ نبوية محمد أحيانا بالزيارة، ويحرص على رؤية الشجاعى وعبد الحليم نويره.

وبقدر استمتاع الخميسى بالسهر مع الأحبة والخلان، كان حريصا أيضا على إنجاز ما عليه من أعمال. كان يتولى بنفسه تصحيح قصصه فى المصرى، وكان يقضى الساعات الطوال فى استوديوهات الإذاعة يعد بنفسه برنامجه الأسبوعى الذى كان يتناول بالعرض والتحليل، قصص مشاهير وأعلام الموسيقى فى التاريخ، وكان برنامجه الموسيقى من أعظم البرامج التى قدمتها إذاعة مصر فى تلك السنين. وعندما قامت الثورة أيدها الخميسى بحماس واعتبر نفسه واحدا من رجالها، ويبدو أن الثورة التى غيرت نمط الحياة فى مصر، غيرت الخميسى أيضا، فتحول من كتابة ألف ليلة وليلة إلى كتابة قمصان الدم!

كانت قصص الخميسى الجديدة مختلفة تماما عن قصصه القديمة، وامتلأت قصصه الجديدة بنماذج من عامة الناس، وأصبحت البطولة فى قصصه للرجال العاديين، واختفى قصر السلطان وحل محله الشارع والمقهى والدكان، وانحاز الخميسى إلى الضعفاء من الناس والمستضعفين من البشر، واختفت من ثنايا سطوره شاعريته القديمة، وعذوبة أسلوبه.

هجر الخميسى الشعر، وأقلع عن الغناء، وصار رجلا واقعيا، وتحول من كاتب تقليدى إلى مناضل من طراز خاص، وانتهى به الحال إلى دخول السجن، وغاب الخميسى خلف الأسوار ثلاث سنوات، ثم عاد وانضم إلينا ككاتب بجريدة الجمهورية. ولكن الخميسى الذى جاء بعد السجن، كان شخصا آخر يختلف، صار أكثر حذرا، وأقل جهدا. وتصورت أنها خطة من الخميسى لكى ينجو بنفسه من رقابة العسس،

ويختفى بنفسه عن عيون البصاصين، ولكن يبدو أن تجربة السجن كانت مريرة إلى الحد الذى أحدث شرخا فى نفس الخميسى، لم يعد يبالى كثيرا بنشر إنتاجه على الناس، وتحول من الشعر التقليدى إلى الشعر الحديث، ولكن شعره الجديد لم يكن فى مستوى شعره القديم. وسرعان ما هجر الشعر والقصص، وألقى بنفسه فى بحر المسرح، كتب أوبريت «مهر العروسة»، وانشغل بها أيما انشغال، وفرض نفسه على العمل المسرحى، يشارك فى الإخراج والموسيقى، وانتهى به الحال إلى خلاف حاد مع الموسيقار محمود الشريف، الذى ترك العمل فى الأوبريت وحل الموجى محله. وعندما ظهرت «مهر العروسة» على المسرح، وبعد شهور طويلة من الإعداد، بدا واضحا بصمات الخميسى على العمل كله، ولاقت الأوبريت نجاحا كبيرا وتألق الخميسى أثناء عرض المسرحية، ثم عاد إلى بياته الشتوى من جديد.

وغرق الخميسى فى حب جديد، وخيل إلى أصدقائه أنه انشغل بحبه الجديد عن أى شئ وكل شئ، ولكن الخميسى الذى لا يقهره شئ ولا يمكن لشئ أن يستحوذ عليه، انفجر من جديد، وفى الإذاعة هذه المرة وبرواية شغلت مصر شهرا أكمله لدرجة أن شوارع القاهرة كانت تضيق بالمستمعين لحظة إذاعة حلقة من رواية «حسن ونعيمة»، التى كانت بحق أعظم ما قدمت الإذاعة من مسلسلات فى حقبة الخمسينات. وعاد الخميسى إلى تألقه من جديد، وكأنما نجاح المسلسل قد حفزه على العودة إلى الأضواء، فقرر أن يسبح فى التيار الجديد، ولكنه اختار المسرح هذه المرة ليعاود نشاطه الفنى، فكون فرقة مسرحية، واستعان بعدد من

الشبان، صار لبعضهم شأن عظيم بعد ذلك، عادل إمام، وسعاد حسنى، وصلاح السعدنى، وحلمى هلالى، والشقيقان أبو الفتوح وفاطمة عمارة.

ولكن سرعان ما تلبدت غيوم السياسة على الساحة العربية، وناصبت بغداد القاهرة العداء، ولم تكن القاهرة عاصمة مصر وقتئذ، ولكنها كانت عاصمة الجمهورية العربية المتحدة. وانفتحت أبواب السجون والمعتقلات من جديد واختفى داخلها مئات من شباب مصر، صحفيين وأدباء وكتاب وفنانين، وآثر الخميسى أن يوقف نشاطه المسرحى، واختفى فترة، ليظهر من جديد فى أحد استوديوهات السينما، ليقدم «حسن ونعيمة» على الشاشة، مكتفيا بدوره كمؤلف وكمكتشف لإثنين من الوجوه الجديدة سعاد حسنى التى تربعت على عرش السينما فترة طويلة من الزمان، ومحرم فؤاد الذى لمع فترة كمطرب ذى صوت متميز ثم لم يلبث أن أصابه البهتان بعد حين. كان العبدلله من بين الذين غابوا وراء الأسوار فترة امتدت عامين بالكمال والتمام، وعندما خرجت من السجن كانت أشياء كثيرة قد تغيرت من القاهرة، فانهدمت قهوة عبدالله، وانزوى أنور المعداوى فى مقهى ديانا بالدقى، وانشغل زكريا الحجاوى بالفن الشعبى، وسرح وراء أولاد «رمز» فى البرارى والحقول، وتفرغ نعمان عاشور للمسرح وغرق فيه، واشتغل يوسف إدريس بالسياسة حينا، ثم عاد إلى كتابة القصة من جديد، وبحثت عن الخميسى وعثرت عليه.. فى مكتب صغير بعابدين واستقبلنى بحفاوة، وهون على نفسى أيام السجن الكئيبة، وألح علىّ أن أشترك معه فى مسرحه، وطلب منى أن أكمل روايتى «عزبة بنايوتى»، وكنت قد فرغت من كتابة فصلها

الأول، قبل أن أذهب فى رحلة الأغلال والقيود، وأمدنى الخميسى بطاقة هائلة، وخرجت من عنده إلى منزلى وعكفت على كتابة الفصل الثانى من المسرحية التى قدر لها أن تظهر بعد ذلك على مسرح الخميسى من إخراج الخميسى وبطولة الخميسى، وأحدث ظهورها على المسرح دويا هائلا وعرضت فى مصر عدة سنوات وشهدها الملايين من شعب مصر، من أسوان وحتى العريش.

***

وعلى خشبة المسرح وجد الخميسى نفسه. ولأول مرة فى حياته يخضع ويمتثل! كان أول من يحضر وآخر من ينصرف. وكانت مسرحية.. «عزبة بنايوتى».. من تأليفى ومن إخراج وبطولة عبدالرحمن الخميسى.

والحق أقول أن الخميسى كان يمكن أن يتألق كمخرج مسرحى لو أنه سلك هذا الطريق. فقد أضاف إلى النص بإخراجه أبعادا جديدة.. وأثرى فهمه للنص جو المسرحية وبروز شخصياتها العديدة. واستطاع المخرج الخميسى أن يصنع نجوما من شباب حديث السن يضع قدمه لأول مرة على خشبة المسرح. وكان دور «القلش» هو أعظم دور لعبه أبو الفتوح عمارة فى حياته بالرغم من أنه ازدهر واشتهر بعد ذلك.

وكان مسرح الخميسى هو الذى لفت أنظار الحكومة إلى خطورة الدور الذى يمكن أن يقوم به المسرح، وأقطع بأنه كان السبب فى إنشاء مسارح التليفزيون التى أسسها أمين حماد، ثم نسب الفضل بعد ذلك إلى غيره من الدكاترة.

وكانت فرصة كبيرة عندما طفت ريف مصر وصحاريها مع مسرح الخميسى نعرض «عزبة بنايوتى» على الجماهير، أحيانا فى مسارح، وأحيانا فى الحقول، وأحيانا أخرى فى سرادقات أقيمت خصيصا لهذا السبب. ولم أر الخميسى فى حياتى متألقا وراضيا وسعيدا كما رأيته فى تلك الفترة التى امتدت حوالى العام. كان يحب الصياعة، وقد بدا مسرورا لهذه الرحلة التى جمعته مع فرقة من الصياع! وكان يعشق الريف وخصوصا فى لحظات الفجر،وهو الوقت الذى يتأهب فيه الخميسى للنوم. وقد عاش تلك اللحظات كثيرا خلال عام التجوال.

واكتشفت شجاعة الخميسى خلال رحلة المسرح. لم تقف فى طريقه عقبة، ولا صده عن هدفه حاجز. ذات مساء غاب ممثل ولم يحضر فى موعده. واقترحت على الخميسى تأجيل العرض تلك الليلة، ولكنه أطرق قليلا، ثم طلب منى الصعود على المسرح لأداء الدور باعتبارى المؤلف وأحفظ المسرحية عن ظهر قلب. ورفضت فى البداية، ثم وافقت. ومرت الليلة بسلام رغم ارتباكى على المسرح. وذات مساء اكتشف المنظمون للحفل صعوبة إقامة مسرح، ولكن الخميسى وجد الحل. وقدمت الفرقة المسرحية على مصطبة فسيحة من مصاطب القرية.

كان الخميسى فى تلك الأيام فى حالة حب، كان غارقا لشوشته فى حب فاتن الشرباشى، نجمة الفرقة.. وزوجته فيما بعد. وأعتقد أن فاتن الشرباشى كانت حب الخميسى الوحيد خلال حياته الطويلة. وأعتقد أن هذا الحب كان سر الإلتزام والنشاط والإقبال الشديد على الحياة.

ولكن حماس الخميسى للمسرح وللفرقة فتر بعد زواجه من فاتن. وتعلق الخميسى بالموسيقى فجأة، وانهمك فى دراسة النوتة الموسيقية، وانشغل فى دراسة العزف على البيانو. وانتهى خلال وقت قصير من تأليف ثلاث قطع موسيقية سجلها على اسطوانات وباعها لشركة من شركات القطاع العام. ولكن موسيقاه لم تكن فى مستوى الفنون الأخرى التى أبدعها الخميسى. واضطر إلى هجر الموسيقى بعد أن تولاه كامل الشناوى بتشنيعاته.

وقد روى كامل الشناوى أن الخميسى دعاه لسماع إسطوانة لومومبا.. وكان شهيد أفريقيا قد لقى مصرعه على يد قوات موبوتو منذ وقت قصير. وجلس الشناوى وأصدقاؤه يستمعون إلى موسيقى «لومومبا» بينما الخميسى يشرح لهم بعض الحركات الموسيقية فى القطعة. فهذه الجملة الموسيقية تشرح بداية مجد «لومومبا»، وهذه تعكس كفاح «لومومبا» بين صفوف شعبه، وهذه تحكى مدى المعاناة التى لقيها أثناء فترة كفاحه.. ثم انتصار «لومومبا» ووصوله إلى السلطة، ثم المؤامرة ضده، وانتصار الثورة المضادة، ثم مصرع «لومومبا» فى النهاية!

ويحكى كامل الشناوى وهو يضحك ضحكته العالية: «وعندما انتهت الموسيقى انبعث من الإسطوانة صوت المذيع يعلن: والآن استمعتم إلى قطعة موسيقية من تأليف الأستاذ عبدالرحمن الخميسى بعنوان شارع الهرم!» وكان الخميسى هو مؤلف القطعتين، وأخطأ عند وضع الأسطوانة، فوضع «شارع الهرم» بدلا من «لومومبا»، ولكنه لم يفرق بين القطعتين!

وسواء كانت تشنيعة كامل الشناوى حقيقة أم مجرد افتراء، إلا أنها كانت تعكس حقيقة موسيقى الخميسى. فلم يكن الخميسي مؤلفا موسيقيا. وإن كان من أكثر الناس تذوقا لها. وهجر الخميسى الموسيقي واتجه إلى السينما.. مؤلفا ومخرجا وواضعا للموسيقى التصورية وكاتبا للسيناريو والحوار! وأخرج الخميسى فيلمه الأول «الجزاء»، وهو فيلم وطنى جيد لولا فقر الإنتاج. فقد ظهر فى الفيلم عساكر إنجليز فى لون أهل النوبة! وعندما أبديت ملاحظتى للخميسى، كان جوابه.. مفيش فلوس!!

ولكن الفيلم رغم فقر الإنتاج كان جيد الإخراج، والقصة كانت من النوع الذى تتحاشاه السينما المصرية.. فهى عن كفاح الشعب المصرى ضد الاحتلال. وكان هذا أفضل أفلام الخميسى.. لأن فيلمه «عائلات محترمة» كان أشبه بأفلام حسن الإمام. أما فيلم «زهرة البنفسج» والذى قام عادل إمام ببطولته، فقد عرض فى دار للسينما لمدة ثلاثة أيام فقط لا غير!

لم تكتمل تجربته السينمائية. وتوقفت لأسباب فى الخميسى نفسه. فالوقت فى السينما قيمة كبرى. وهو يترجم إلى فواتير تضاف إلى حساب الإنتاج. والمنتج الجيد هو الذى ينتهى من إعداد الفيلم فى فترة معقولة. ولكن لأن البساط أحمدى عند الخميسى، فقد استغرقته الديون. وامتنع كبار الممثلين عن العمل معه. والسبب أن الخميسى ليس تاجرا، ولكنه فنان. وهو يريد أن ينتج أفلاما ويعيش حياته فى نفس الوقت. وهى معادلة صعبة فشل الخميسى فى تحقيقها. وخرج من مولد السينما بفيلم جيد، وفيلم هزيل، وفيلم سيئ للغاية.

وعاد الخميسى من جديد عند مفترق الطرق لا يدرى أين المسير.. والمصيرا وفجأة هزته فاجعة رهيبة، هى وفاة زوجته فاتن فى حادث أليم. و لا أعتقد أن الخميسى اهتز فى حياته إلا مرتين: مرة عندما خاض تجربة السجن. ومرة عندما واجه كارثة وفاة فاتن.

ولا أقصد أن السجن هز الخميسى بأن خلع قلبه من مكانه، بالعكس.. لقد كان الخميسى ثابتا طوال فترة السجن، وواجه المحنة بشجاعة وصمد لها حتى النهاية. ولكن السجن ترك فى نفس الخميسى أثرا لا يمحى. وكان يردد دائما بمناسبة وبلا مناسبة: «كل شىء مكلبش فى السجن ياابنى. الشمس مكلبشة والنهار مكلبش والهواء مكلبش والحياة كلها مكلبشة»! وظل بعد السجن يضيق بالجلوس فى الأماكن المغلقة والأماكن الضيقة. وكان يحب الخلاء والهواء الطلق والبيوت الفسيحة.

وكانت فاجعة موت فاتن أقسى على نفسه من أى حادث وقع له فى الحياة. انطوى الخميسى على نفسه فترة من الوقت وتفجرت فى داخله ينابيع الشعر بعد أن خيل للناس أنها جفت. وكانت قصيدته فى فاتن الشوباشى هى أعظم ما كتب بعد شعره الرومانسى الحالم القديم. كانت قصيدة شاعر حزين ومكلوم بالفعل. وإذا كانت النظرية تقول: «إن أجمل الشعر أكذبه».. فقد أثبت الخميسى العكس، وأكد على أن.. أجمل الشعر أصدقه!

ولكن لأن الخميسى قوى، وحبه للحياة أكبر من أى حب وأبقى من أى حب، فقد تغلب على المحنة بعد فترة، ومارس تجربة الشعر، فنه

الأول والأصيل. ولكن شعره الجديد كان يختلف عن شعره القديم كل الاختلاف. كان شعرا منثورا أقرب إلى الشعر الأفرنجي منه إلى الشعر العربي. كان شعرا فاقد الروح والحرارة. وكان الخميسي يؤرخ به لأحداث يومية. وكان يحتل في خانة الشعر المعاصر مكانا في الذيل.

ومن هنا بدأت مأساة الخميسي!

فقد سبقه في هذا اللون من الشعر فرسان احتلوا ذرى عالية وقمما شاهقة. كان هناك صلاح عبدالصبور وحجازي وأمل دنقل. فانصرف الخميسي بكل مواهبه الاجتماعية لينقل شعره إلى العالمية. ونجح في ترجمة شعره إلى لغة أجنبية. واهتم به بعض المستشرقين وبعض هواة الأدب العربي من الخواجات، وتخصص بعض التلاميذ في معاهد موسكو وبرلين في دراسة أدب الخميسي وشعر الخميسي، وتخصص بعضهم في الخميسي نفسه، وحصل طلبة من هؤلاء على درجة الدكتوراه في الخميسي وأدبه.

واستهوت الحركة الجديدة الخميسي، فانحاز بشعره إلى العمل السياسي من أجل التقدم والتطور والسلام. ولم يعجب السلطة الحاكمة الموقف الجديد للخميسي، فبدأ الحصار. وأحس الخميسي بأنفاس العسس ووقع خطوات المخبرين. وشعر بأن قضبان السجن تطبق عليه.. ففر هاربا ولجأ أول الأمر إلى بيروت.

والحق أقول إن الخميسي كان من أشد الناس ثورة على الأوضاع المتردية في مصر في السبعينات. ولذلك كان خط الرجعة إلى مصر

مقطوعا أمامه.. وكان المنفى مفروضاً عليه. ولكن لأن الخميسى كان له رأى فى لبنان، وكانت له قصيدة شهيرة فى وصف بيروت، حيث كل شىء معروض للبيع، فقد غادر الخميسى بيروت ذات يوم واختار بغداد منفى له.

وهكذا أصبح الخميسى منفياً، وصار قدره أن يعيش خارج مصر.. وهو الأمر الذى لم أكن أتصوره، ولا أعتقد أن الخميسى كان قادراً على تحمله، ولكن هكذا شاءت الأقدار.. الخميسى فى المنفى، وبعيداً عن مصر..

***

وقصة حياة عبد الرحمن الخميسى واحدة من أعجب وأغرب قصص الفنانين والشعراء فى تاريخ مصر، ولكن الباحث المدقق سيكتشف أن تاريخ مصر الأدبى والفنى، حافل بقصص كثيرة من هذا الطراز مع إختلافات فى التفاصيل وفى النهايات. فعبد الرحمن الخميسى هو ابن سيبويه المصرى الذى كان يركب حماره بالمقلوب ويطوف فى الأسواق ويهجو الشعراء المعاصرين ويرميهم بأشنع التهم ويصفهم بأقذع الألفاظ، وهو عبد الله النديم لو كانت الظروف مناسبة والريح مواتية، وهو بيرم التونسى لو كانت القضية فى زمنه هى المحتل المستعمر والاستقلال التام أو الموت الزؤام!

وعلى أية حال، ستجد فى الخميسى شيئاً من كل هؤلاء، وستظل من أبرز حسناته اهتمامه بالزهور الجديدة والمواهب الصاعدة، فهو الذى

اكتشف سعاد حسنى وكانت مجرد طفلة لا تعرف القراءة والكتابة، وهو الذى جاء بمحرم فؤاد وانتشله من شارع محمد على إلى الشهرة والأضواء..

وهو الذى وقف إلى جانب عادل إمام وصلاح السعدنى وفاطمة عمارة وفاتن الشوباشى ومحسنة توفيق، وكان له الفضل فى الأخذ بيد عبد الرحمن شوقى ويوسف إدريس، وعشرات آخرين اختلفت حظوظهم وتشعبت المسالك بهم فى الحياة..

ولكن عيب الخميسى أنه كان لا يستمر، كان يرعى الموهبة ثم ينساها فجأة وينشغل بشىء آخر، وكانت هموم الحياة ومطالبها وكثرة العيال والأتباع هى التى تفرض عليه الهروب أحياناً من مكان إلى آخر والقفز أحياناً من عمل إلى آخر، ولعل عدم الاستقرار كان هو الصفة التى لازمت الخميسى منذ نشأته وحتى الآن. حتى البيوت التى سكن فيها تنوعت أحياؤها حسب الظروف والأحوال. ذات مرة كان يسكن فى عمارة شاهقة تطل على حديقة الأزبكية وكان فى الشقة شرفة واسعة يحلو للخميسى أن يجلس فيها فى ليالى الصيف، وذات ليلة مقمرة جذبنى الخميسى من يدى ووقف ينظر إلى الحديقة، وقضى وقتا طويلاً وهو صامت لا يتكلم، وفجأة، قال لى وهو يضغط على ذراعى «شايف الجنينة دى» ! «وشايف الدكة اللى هناك!، أنا نمت عليها كتير.. وكانت برد، لا غطاء ولا أكل ولا مستقبل ولا أى شىء!».

ولم ينتظر منى رداً أو تعليقًا، تركنى عند حافة الشرفة وعاد إلى مكانه الذى اعتاد أن يجلس فيه، وخيل إلى أن الخميسى كان يحدث

نفسه ولا يتحدث معى، وظننت أنه اختار هذه الشقة بالذات لأنها تطل على هذه الحديقة وعلى هذه الدكة، ولكن ظنى لم يكن فى محله، فلم يلبث أن هجرها وذهب إلى حى السيدة زينب وسكن فى عمارة حديثة هناك، وقضى فى هذه الشقة سنوات قبل أن يهجرها إلى شقة أخرى فى حى عابدين تطل على قصر عابدين، ولكنه سرعان ما تركها، وذهب ليعيش فى شقة فى حى «معروف» على مقربة من نقابة الصحفيين، ثم تركها هى الأخرى إلى شقة أخرى فى شارع عدلى، وهى الشقة التى قضى فيها أيامه الأخيرة فى القاهرة قبل أن يغادرها إلى بلاد الله.

ولعل علاقة الخميسى بالشقق تعطينا فكرة عن علاقة الخميسى بالناس وبالأشياء. فهو يتعلق بشلة ثم يختفى فجأة ليظهر فى شلة جديدة، وقد ينغمس فى عمل ما حتى يخيل إليك أن الخميسى لابد غارق فيه إلى النهاية، وفجأة يهجر الخميسى العمل لينغمس فى عمل آخر بنفس الحماس ونفس النشاط. وهو فى هذا الأمر يختلف عن زكريا الحجاوى مثلاً، الذى عاش فى الجيزة حياته كلها، ورفض أن يغادرها بعد أن انهار بيته، ورفض شقة عرضوها عليه فى مدينة نصر قائلاً: «يمكننى أن أمتلك شقة فى مدينة نصر ولكنى لا أستطيع أن أسكن فيها، لأن مدينة نصر هى مقبرة للأحياء».

وهو أيضاً يختلف عن عبد الحميد قطامش الذى عاش ومات فى شقته بالسيدة زينب، ويختلف عن طاهر أبو فاشا الذى عاش العمر كله ولا يزال فى شقته فى حى الحسين. وحتى عندما غادر الخميسى مصر

إلى الخارج، عاش الخميسى فى بيروت فترة ثم تركها وذهب إلى بغداد، وعاش فترة طويلة فى بغداد كان فيها زينة المحافل الفنية والأدبية، ولكنه لم يلبث أن غادر بغداد إلى غير عودة وذهب ليعيش فى أوروبا حيث هو الآن.

وأيا كانت الأسباب التى من أجلها ترك الخميسى بيروت إلى بغداد ثم ترك من أجلها بغداد إلى أوروبا، فإنها حتى لو لم تكن موجودة لاختلقها الخميسى اختلاقا، فالاستقرار عند الخميسى يعنى الجمود والموت.

وإذا كان الخميسى قد تنقل ببساطة بين الشقق والأحياء، فقد تنقل وبالبساطة نفسها بين أبواب الأدب والفن، فهو كاتب القصة القصيرة والرواية والمسرحية والأوبريت والتمثيلية الإذاعية والرواية السينمائية، واشتغل بالإخراج المسرحى وبالتمثيل المسرحى وبالإخراج السينمائى والتمثيل السينمائى، كما اشتغل بتأليف الشعر وتأليف الموسيقى وتأليف الأغانى، وهو الشىء الذى قد يجهله أغلبية القراء. ولقد شاعت للخميسى أغنية للمطربة مها صبرى يقول مطلعها (ما تزوقينى يا ماما، دا عريسى هياخدنى بالسلامة).

وهناك عشرات من الأغنيات التى رددها الشعب المصرى فى فترة الثلاثينات وبداية الأربعينات كانت من تأليف الخميسى، وإن أذيعت بأسماء مؤلفين آخرين. ولقد ذكر لى الخميسى يوما ما أنه عندما جاء إلى القاهرة قادمًا من المنصورة، وجد نفسه ضائعًا فى المدينة الكبيرة، كانت القاهرة أكبر من إمكانياته، وإن كانت أصغر من طموحاته، ولكن

الطموحات لا تفيد مع واقع يومى لشاب ريفى يريد أن يعيش ويحتاج إلى مأكل وملبس ومسكن، وكان على الخميسي أن يتصرف. كان يقضى أغلب أوقاته على مقهى فى حى الحسين، وعلى غير ميعاد جاءه «مؤلف أغانى» شهير وكان قد سمع بموهبة الخميسي وقدرته على تأليف الأغانى، ولم يستغرق الاتفاق بينهما سوى دقائق معدودة، الخميسي يؤلف والشاعر الشهير يبيع باسمه ويتقاسمان الثمن.

ولا أعتقد أن الإتفاق بين الشاعر المغمور والشاعر المشهور قد تم بحذافيره، صحيح أن الخميسى ألف، وصحيح أن الشاعر المشهور باع، ولكن الثمن الذى تقاضاه الخميسى عن تلك الأغنيات كان شيئًا ضئيلاً بالنسبة لما دخل جيب الشاعر المشهور، ولكن الخميسى كان راضياً على أية حال، فهو يستطيع الآن أن يتنقل فى المدينة وأن يسهر وأن يقرأ، ويستطيع أيضًا أن يواجه مطالب الحياة. وفى فترة أخرى من فترات حياته، اضطر الخميسى إلى الاشتغال كممثل فى فرقة مسرحية متجولة، كان يشرف عليها فنان شعبى أصيل هو أحمد المسيرى، ولعل هذه الفترة كانت أخصب فترة فى حياة الخميسى، فقد طاف الريف المصرى فى فرقة مسرحية كان لها تقاليد وطقوس وصاحبها «أحمد المسيرى» كان فناناً حقيقياً، يؤلف المسرحيات المرتجلة ويؤدى أدوار البطولة، ويؤلف الأغانى لنفسه وللآخرين.

يحكى أنه كان يجلس على مقهى فى شارع عماد الدين أثناء الحرب العالمية الأخيرة، وكان عاطلاً عن العمل ويعانى من البطالة والفلس،

وفجأة دخل المقهى الفنان الشعبى محمود شكوكو، فنادى عليه أحمد المسيرى، وسأله: معاك عشرة جنيه يا محمود؟ ورد محمود شكوكو: ليه؟ وقال المسيرى: عندى ليك أغنية هتعمل هزة فى البلد، وأخرج شكوكو الجنيهات العشرة ودسها فى يد أحمد المسيرى، فرجاه المسيرى أن يجلس معه خمس دقائق فقط، ليدون له الأغنية فى ورقة. وفى الواقع لم يكن فى رأس أحمد المسيرى أى فكرة عن الأغنية التى باعها لمحمود شكوكو بعشرة جنيهات، ولكنه بدأ يؤلف الأغنية أمام محمود شكوكو وعلى الفور وانتهى من تأليفها بالتمام والكمال، وكان مطلعها «ورد عليك فل عليك، يامجننى بسحر عنيك».. وقد شاعت هذه الأغنية وترددت على ألسنة المصريين فترة طويلة من الزمان. وبالقطع استفاد الخميسى من تجربة أحمد المسيرى، وكان الخميسى دائماً يذكره بالخير، ويحكى عن أيامه مع المسيرى بعاطفة طيبة ومشاعر قوية. ولكن وبالرغم من كل الفنون التى مارسها الخميسى، إلا أن الذى سيبقى من الخميسى فى النهاية، هو شعره العظيم القديم الذى كتبه قبل أن يتحول إلى شاعر واقعى، وهو فى هذا الشعر بلغ قمما عالية، ويقف مع على محمود طه وإبراهيم ناجى وأحمد فتحى وغيرهم من شعراء هذه المرحلة. ويبقى معه أيضاً دوره المتميز فى فيلم الأرض «دور الشيخ يوسف الذى شارك فى معارك ثورة ١٩١٩ ثم تدحرجت به الأحوال فى النهاية، فافتتح لنفسه دكانا فى القرية وانضم إلى عساكر الهجانة التى جاءت لضرب الفلاحين وقهرهم، ثم تطلع إلى منصب العمدة عارضاً خدماته على السادة الذين أذاقوا الفلاحين كل أنواع الهوان»، ولقد تفوق

الخميسى فى هذا الدور على نفسه، فقد قدم نموذجًا بشكل أو بآخر فى الحياة السياسية المصرية، وعلى طول التاريخ وخصوصًا فى العصر الحديث! ويبقى منه أيضًا دور «اسماعيل بيه» فى مسرحية «عزبة بنايوتى» المجاهد القديم الذى واجه السجن والنفى وحبل المشنقة إبان ثورة ١٩١٩، ثم اكتشف بعد الثورة أن كل شىء قد عاد إلى ما كان عليه، الثوار تحولوا إلى وزراء، والمناضلون اشتغلوا بأعمال المقاولات، فأغرق نفسه فى الوهم ولكنه ظل شوكة فى جنب شقيقه حسنين بيه، الذى اشتغل مقاولا مع الجيش الإنجليزى، ودخل البرلمان نائبًا عن الجماهير!

وتبقى تحفته الشعبية الرائعة «حسن ونعيمة» التى أضفى عليها طعماً جديداً وبساطة متناهية، وقدم لنا لوحة ريفية باهرة ليس لها نظير. ثم تبقى قصة حياة الخميسى نفسها، قصة الفنان الذى تحاصره ظروف أقوى من إرادته، وأعتى من طاقاته، ولكنه يقهرها جميعاً، ويهرب من ريف مصر إلى القاهرة المزدحمة الصاخبة، يفرض عليها نفسه بعد حين، ويفرض نفسه بعد ذلك على وطنه العربى كله، وعلى مناطق أخرى فى العالم خارج وطنه.

ولقد عاش الخميسى حياته كفنان وأنتج فى بعض فترات حياته فناً، ولو كان الخميسى تفرغ لفنه كنجيب محفوظ أو توفيق الحكيم، لترك لنا الخميسى مكتبة عامرة، ولكن الخميسى آثر أن يعيش حياته بفن على أن ينتج فنا، ولهذا قد تصبح حياة الخميسى نفسها فنا تستفيد من ورائه

أجيالنا الصاعدة، ولو أن الخميسى تفرغ لكتابة تاريخ حياته كما حدثت وبالتفصيل، فبالتأكيد سنحصل على سيرة فنان تقترب من طفولة جوركى واعترافات جان جاك روسو وأيام طه حسين. فالظروف التى صارعها، والتجارب التي خاضها، والأهوال التى صادفها لابد ستنتج فى النهاية عملاً فنيًا رائعاً ومدهشًا وغريبًا. قصة فنان وحيد، واجه أعداء كثيرين، ولكنه لم ينسحب ولم يتوار، بل قرر أن يخوض المعركة ضد الجميع، وأن يقاتل بلا سلاح، والأغرب أنه انتصر!

□□

رحلة بلا متاع!

لم ألتق بمحمد عودة فى مقهى محمد عبدالله ولكنى قابلته صدفة فى مقهى آخر يقع وسط مدينة القاهرة، هو مقهى «إيزافتش» الذى كان يطل على ميدان الإسماعيلية (التحرير فيما بعد)، وكان يملكه يوغسلافى مهاجر، فر من يوغوسلافيا، واختار القاهرة منفى له، وأسس محلاً أنيقًا للغاية، واستخدم عمالاً من الأجانب قبارصة ويونانيين، ولكن الرجل اليوغوسلافى - وهنا العجب - قصر نشاط محله على بيع الفول المدمس أشهر طعام شعبى فى مصر، واجتذب هذا المحل الأنيق - الذى يسبح فى جو أوروبى ويبيع طعامًا شعبيًا - فئة من المثقفين المصريين الذين تعلموا فى الغرب ولم تنقطع جذورهم الضاربة فى أرض مصر!.

وكان محمد عودة واحداً من هؤلاء الذين اختاروا من «إيزافتش» محلاً مختاراً لهم، يجتمع بالأصدقاء، ويدير المناقشات ويدخل فى معارك نظرية، ويقرأ جانباً من عشرات الكتب التى كان يحملها دائماً بين يديه. ولعل اختيار محمد عودة لمقهى «إيزافتش» يرجع إلى الصفات المشتركة بين الرجل والمقهى، فمحمد عودة واحد من المثقفين المصريين الذين سبحوا فى علوم الغرب، وأغلب قراءاته باللغتين الفرنسية والإنجليزية، ومع ذلك لم يبحر محمد عودة بعيداً عن شواطىء مصر، ولم تنقطع خيوطه بقاع المجتمع، فى الحارة وفى القرية، بالرغم من أنه كان يعيش فى وسط القاهرة وفى أرقى أحيائها، وينزل فى بنسيوناتها وفنادقها الصغيرة.

كان صورة مصغرة من قهوة إيزافتش، ديكور أفرنجى وخدمة أجنبية وطعام مصرى عربى أصيل.

كان يتوافد على مقهى «إيزافتش» فى تلك الأيام مجموعة من المثقفين المصريين قرأوا قشوراً فى الثقافة، وسبحوا فى مجار ثقافية ضحلة، واستخدموا شعارات وتعبيرات وعبارات أفرنجية، وارتاحوا إلى ما وصلوا إليه، ورضوا عن أنفسهم واكتفوا بمشاهدة الحياة فى مصر من فوق رصيف مقهى «إيزافتش» ثم الدخول فى مناقشات عقيمة حول نظريات لا علاقة لها بواقع شعب مصر. لذلك كان الخلاف محتدماً ومستمراً بين جبهة المثقفين إياهم وبين محمد عودة، وكان هذا مدخلى إلى محمد عودة. فذات صباح، احتدمت المناقشة بين محمد عودة وشلة المثقفين إياهم، وكان الحديث حول أم كلثوم وفنها وتأثيرها على وجدان

الشعب المصرى وأثرها فى حالة الغيبوبة التى كان يعيشها شعب مصر فى ظل حكومة باطشة وسفارة بريطانية حاكمة. كان رأى المثقفين إياهم، أن أم كلثوم هى السبب فى كل ما يعانى منه شعب مصر، فهى ترسم لهم بأغانيها واقعاً مخمليا لا صلة له بالواقع البائس الذى يعيش فيه، ووصفوها بأنها «أفيون» لتخدير شعب مصر ولتمكين عصابة المستفيدين من دمه، وكان رأى محمد عودة أن هذه مبالغة لا أساس لها فى الواقع، وأنه حكم سهل توصلوا إليه لإراحة أنفسهم من دراسة المشاكل الحقيقية والأسباب الرئيسية فى تعاسة شعب مصر.

وانضممت فى المناقشة إلى رأى محمد عودة. ولكنهم تغلبوا علينا بالزعيق واستخدام الشعارات والاستشهاد بأقوال من هنا وهناك. وينطقونها بلغتها الأصلية ويخلطونها بكلمات عربية.

واقتربت من محمد عودة أكثر عندما وصف شلة المثقفين إياهم بأنهم جهلة. وكان ذلك الوصف من محمد عودة كافياً لتغيير فكرتى عن شلة إيزافتش.

شلة المثقفين

وأحببت محمد عودة أكثر عندما عرضت عليه إنتاجا لى فقرأه باهتمام وأبدى إعجاباً شديداً بما قرأه، على عكس سلوك شلة «إيزافتش» عندما عرضت عليهم شيئاً من إنتاجى، فقد ألقوا نظرة خاطفة على ما كتبت، ولم يوجه لى أحدهم كلمة ثناء أو كلمة نقد وانشغلوا عنى بمناقشة قضايا العصر التى تبدأ من المشكلات التى خلفتها الحرب العالمية الثانية والأخطار المحدقة بالعصر النووى، وتنتهى دائماً بمناقشة

سلوك «مخالى» جرسون مقهى إيزافتش وموقفه الغريب لإصراره على تقاضى حساب الطلبات من شلة المثقفين قبل أن يغادروا المقهى!.ومنذ تلك اللحظة بدأت رحلتى وراء محمد عودة، فى الصباح عبر شوارع القاهرة الأنيقة، ومساء عبر حوارى وأزقة القاهرة المعزية، وكانت تنتابه حالة من النشوة وهو يجوب أزقة حى الجمالية وسوق السلاح فى القلعة.

وكنت أتخيله فى تلك الجولات واحداً من المماليك الذين يحيطون بالسلطان المظفر، وأحياناً أتخيله فلاحاً هارباً من قريته إلى أزقة مصر هارباً من تحكم الملتزم وسياطه. كان يبدو كأنه قطعة من جسم الماضى انفصلت فجأة وسقطت فى عصرنا، وهكذا كان محمد عودة، حرب طاحنة بين ما يعرفه وما يمارسه، بين أحلامه التى يحلق بها وواقعه الذى يزحف فيه، بين طاقاته الذهنية لإمكانياته المادية، بين العصور التى يحيا فيها بخياله والبنسيون الذى ينزل فيه! ومن خلال محمد عودة تعرفت إلى عصور مصر الوسيطة ومماليكها العظام، وقادتها الفاتحين، وسلاطينها المستبدين، وحكامها الذين نصبوا المشانق ودقوا الخوازيق وفرضوا المكوس والرسوم وشربوا من دم الفلاحين وأكلوا من لحومهم!.

وكما «جرجرنى» محمد عودة إلى حوارى مصر المملوكية «جرجرته» أنا الآخر إلى قهوة محمد عبد الله، واكتشفت أنه على علاقة بالكل وأنه قرأ لزكريا الحجاوى وأنور المعداوى وعبد القادر القط، وأنه يعرف قدرات كل منهم ويعرف مواطن القوة والضعف لكل واحد من

أعـضـاء الشلة. ولكنه كـان أقـرب فى مـزاجـه وتكوينه إلى زكـريا الحجاوى. وكان إختياره لزكريا الحجاوى هو إختياره لصف الصعاليك وأبناء الطريق الذين استطاعـوا أن يقـهروا كل الظروف ليـصنعوا على مدى تاريخ مصر عبقريات أضاءت وسط الظلام والعفن والفساد. بدأ محمد عودة متردداً ليلاً على قهوة محمد عبد الله، ولم يكن يحضر وحده، بل كان يحضر ومعه شلة من الشباب: محررون يحاولون العمل فى دور الصحف، وشعراء يحاولون نظم الحرف، وكتاب قصة يحاولون رسم هياكل لعوالم عاشوها أو شاهدوها أو حلموا بها يوماً ما.

كان بعضهم موهوباً، وأغلبهم عديم الموهبة، وكان بعضهم خفيف الدم، وبعضهم ثقيلاً لا تطيق الأرض حمله على ظهرها، ومع ذلك كان عودة يحتضن الكل ويرعى الجميع، وكان بمثابة الأب الروحى، وكان لا يكتفى بفتح الأبواب لهم، ولكنه يتابع مسيرتهم، ليس بالنفوذ، فلم يكن له نفوذ على الإطلاق، ولا بالنقود، فلم يكن يحمل نقوداً على الإطلاق ولم يكن يملك منها شيئاً، ولكن بالنقد والتشجيع، وكنت أعجب كثيراً لهذا السلوك من جانب محمد عودة، لأننى كنت الوحيد من أفراد الشلة الذى يعلم ظروف محمد عودة على وجه التحديد. ففى تلك السنوات الأولى من حقبة الأربعينات، كان يسكن فى بنسيونات من الدرجة الثالثة وسط القاهرة وكان يختار بالذات تلك البنسيونات التى تملكها أرامل أجنبيات اضطرتهن الظروف إلى تحويل شققهن إلى بنسيونات لمواجهة أعباء الحياة. ولكن الصحافة فى مصر فى تلك الأيام كان إعتمادها على أقلام بعض النجوم، بينما ينسحق فى قاع

المهنة مئات من الموهوبين والمثقفين وأصحاب الأحلام والآمال، ولقد شمل هذا القانون محمد عودة كما شمل الآخرين، ولذلك كان يضطر أحياناً إلى الإنتقال من بنسيون إلى آخر، أحياناً فى وضح النهار وغالباً فى جنح الليل ومن الأبواب الخلفية.

رحلتى العجيبة

فى تلك الغزوات كان عودة يختار العبد لله لمساعدته فى عملية الهروب من بنسيون لآخر، وكانت مهمتى تنحصر فى إخلاء الغرفة من الكتب، وكانت عملية إخلاء الكتب وحدها تستغرق أسبوعاً كاملاً، فقد كانت الكتب هى كل ثروته فى الحياة. وكانت مجرد صدفة بحتة أننى عثرت على كتاب من كتب عودة أثناء عملية من عمليات النقل، هذا الكتاب هو «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لإبن إياس، وقررت أن أستعيره من عودة دون أن أخبره، ولزمت بيتى أسبوعاً مع بدائع الزهور، وعشت مع الرحلة العجيبة التى عاشتها مصر فى عصور سابقة، من السلطان برقوق إلى المملوك حمص أخضر، وشمخت بأنفى فى حروب النصر، وطأطأت رأسى فى معارك الهزيمة، وودت لو انحنيت أمام السلطان قطز إعترافاً بفضله فى إبادة جنس التتار من على ظهر الأرض، وأمام الملك الظاهر بيبرس، البطل الذى جعل مصر منارة وحولها إلى قلعة، وتمنيت لو كنت طبيباً لأقوم بتشريح قلب وعقل الزينى بركات الذى اشتغل مع عشرة حكام وجلس يصدر الأوامر والنواهى من نفس الديوان فى خدمة عشرة عهود، وكان دائماً مع المملوك الحاكم وموظفاً سابقاً فى خدمة المملوك السابق، وعلى رأس حكومة المملوك الآتى!.

وكان هذ الكتاب هو بابى إلى رحاب مصر المملوكية، ومن بعده توغلت فى أزقتها، وحواريها وقصورها، وساحاتها، وكانت مكتبة محمد عودة المتنقلة من بنسيون لآخر هى زادى الذى تسلحت به فى رحلتى الطويلة الحافلة بالأسرار والحكايات والأعاجيب.

وذات مساء، غادرت مقهى محمد عبد الله مع محمد عودة، فى رحلة قصيرة إلى حى الدقى الفاخر، باعتبار ما كان فى تلك الأيام، كانت بالنسبة للعبد لله سهرة إلى مجهول. وعندما دخلت القصر الذى سنقضى السهرة فيه، أحسست برجفة وانتابتنى قشعريرة، فلم يكن قد سبق لى الدخول فى مكان مثل هذا من قبل. قصر من القصور التى تظهر عادة فى السينما، تحوطه حديقة مترامية الأطراف، أشجار النخيل عالية ومتناسقة، كأنها صف من الجنود اختير بعناية لاستقبال عظيم، ورائحة الورد تعبق فى الجو، والأضواء التى تتلألأ من داخل القصر تضفى على الجو كله مزيداً من الفخامة والإبهار، وفكرت فى الانسحاب واعتذرت لمحمد عودة بحجج واهية، ولكنه أصر على إصطحابى إلى داخل القصر، وبث فى نفسى الشجاعة، وكسر الحاجز النفسى الذى كان يفصل بينى وبين هذا الجو الجديد. وعندما خطوت الخطوة الأولى داخل القصر، اكتشفت عالماً آخر لم أشاهده من قبل، عالماً من الراحة والرفاهية والثقافة والموسيقى، عالماً غريبًا خلا من العقد ومشاكل الحياة اليومية، عالماً كنت محتاجاً إليه لأعرف بالضبط ما يدور على الشاطىء الآخر من الحياة. ولكن ما دار داخل القصر تلك الليلة كان أغرب من الحقيقة ومن الخيال.

حالات تستحق التشجيع

كان القصر الذى دخلناه آية فى الترف والأناقة والجمال، ولم أكن قد رأيت قصراً مثل هذا قط، ولم يكن فى القصر سوى سيدتين ألمانيتين فى الخمسين من عمرهما، وإن كان يبدو عليهما أنهما فى الأربعين. وقد سهرت تلك الليلة سهرة ممتعة استمعت فيها إلى موسيقى بتهوفن وباخ، وقد تبادلتا العزف على البيانو بينما كانت الأنوار الخافتة تضفى جواً ساحراً على المكان.

وتناولنا عشاء شهياً، وكان الحديث يدور بالفرنسية التى لا أعرفها، واضطرت إحداهما إلى التحدث معى بإنجليزية ركيكة، ولكنها اضطرت إلى إستعمالها مجاملة للعبد لله الذى كان يجلس أثناء الحديث كثور الله فى برسيمه!.

كنت فى الثانية والعشرين من عمرى، وكنت خجولاً بالرغم من طموحى واقتحامى وقد نغص على خجلى تلك الليلة الرائعة، والسبب أن هندامى لم يكن لائقاً وحذائى لم يكن نظيفاً، وتصورت طوال السهرة أن السيدتين تحدقان فى ملابسى وتشمئزان من منظرى، وعندما صارحت محمد عودة بعد السهرة بحقيقة إحساسى، نظر نحوى باندهاش، وأكد لى أنهما سرتا جداً لوجودى وأنهما لم تلتفتا إلى شىء مما أعانيه، وأن هذا النوع من الناس لا يستوقفه منظر الإنسان ولا هندامه، وأن الأوروبيين خصوصاً لا يقيمون وزناً لمثل هذه التفاهات التى تتحكم فى حياتنا وفى مصيرنا أيضاً فى شرقنا السعيد!

وشحنتنى كلمات عودة بثقة زائدة، ولذلك كانت السهرات المتتالية ممتعة للعبد لله، وقد تخليت عن خوفى وخجلى، واندمجت فى الجو

الجديد الذى قادنى إليه محمد عودة. ولم أكن أنا وحدى الذى يختصه عودة بهذه السهرات التى تفتح أمام الشخص المبتدىء آفاقاً جديدة.. كان يصطحب معه فى سهرات أخرى آخرين لهم نفس الظروف، كان أحدهم شابا ريفيًا ساذجًا، وكان عندما يصاب بنزلة برد، يلف حول رقبته منديل جيب أبيض مبللا بالماء، عادة من عادات البيئة التى جاء منها الأديب الريفى إياه، وكان العبد لله دائم السخرية من الأديب الريفى الشاب وبطريقته الخاصة التى يتناول بها الأشياء والحياة. وكان محمد عودة على العكس يرى فى كل محاولة حالة تستحق التشجيع وبذرة تستحق الرعاية.

ولعل من أجل هؤلاء الشبان الذين يتزاحمون على أبواب الصحف، ويقفون فى طوابير أمام الحياة الأدبية ينتهزون فرصة ويتشبثون بأمل، لعل بسبب هؤلاء، كان محمد عودة مرفوضاً عند أغلب أدباء الجيل الكبار، فما من مرة دعى إلى منزل أحدهم، إلا واصطحب معه عدداً من هؤلاء الشبان. وكان بعضهم كما قلت ثقيل الظل، ولم ينقطع عودة عن تلك العادة حتى الآن.

ما بعد الهزيمة

وعندما قامت حرب فلسطين تحمس لها عودة بشكل خاص، كان يرى أن الحركة الصهيونية هى امتداد لكراهية أوروبا ومن بعدها أمريكا للشرق العربى. عندما انتهت الحرب بهزيمة الجيوش العربية، أصيب عودة بخيبة أمل وأعلن رفضه لكل شىء وأى شىء. كان مؤمنا بضرورة التغيير وحتميته أيضاً، وكان مؤمنا بحزب الوفد، ولكنه كان

يائسًا من استطاعة حزب الأغلبية القيام بأى عمل حقيقى لقلب الأوضاع فى مصر لصالح الناس، كان يرى أن حزب الوفد قد ترهل، وأن الأجنحة المتصارعة داخله قد انتهت بهزيمة الأجنحة الشابة وأنتصار جناح الكبار وأبناء العمد والبيوتات العريقة فى ريف مصر. وكان من رأيه فى تلك الأيام أن المثقفين قد انفصلوا عن واقع الحياة فى مصر، وعاشوا فى بروج عالية وانهمكوا فى مناقشة نظريات لها وجود فى الكتب وإن لم يكن لها وجود فى حياة الناس.

وكان يرى أن الوقت قد حان لحسم الأمور لصالح الطبقات الفقيرة والمجهدة، ولكن كيف؟ كان عودة يردد فى حيرة دائمًا.. سيحدث التغيير حتماً، ولكن كيف ومتى هذا هو السؤال؟

وفجأة اختفى محمد عودة من القاهرة، ومن مصر كلها، طار إلى الهند ليعمل هناك وغاب فترة طويلة، وعندما عاد كان كل شيء قد تغير فى مصر وفى عودة أيضاً!.

كان فى مصر نظام جديد بقيادة مجموعة من ضباط الجيش، وطنيون بالتأكيد، وإن كانت السبل التى يسلكونها غير واضحة المعالم، ولكن عودة كان متفائلاً بالتغيير، وكان يرى أن أبواب مصر قد انفتحت على آفاق لا يعلم مداها إلا علام الغيوب، ولكنها حتمًا ستتطور وتنتهى إلى صالح الجماهير.

ولكن فجأة حدث لعودة ما حدث لكل المثقفين الوطنيين الذى أيدو الثورة بدايتها بالقلب وليس بالتقارير، وكان اختلاف الضابط فى القمة وصراع السلطة الذى نشب بينهم منذ أول يوم، كان قد فتح بابا أمام

تسلل عناصر تزحف كالدود، وتفح كالأفاعى، وسيطرت هذه العناصر على معظم ضباط القيادة، وأصبح الشعار: من ليس معى، فهو ضدى. وألقى القبض على عودة فى أزمة مارس ١٩٥٤، وغاب شهور فى السجن، وعندما عاد، كان شديد القرف من كل شئ، شديد القلق بالنسبة للمستقبل، ولكنه لم يغير عاداته قط، الطواف بشوارع القاهرة نهارا، والتسكع فى أزقتها ليلا، والتهام الكتب التى بين يديه، وتوزيع عطفه وحنانه على كل الذين يصارعون على بداية الطريق.

موقف وموقف

فى عدوان عام ١٩٥٦، كان محمد عودة معى فى بيروت. والحق أقول أنه الوحيد بين الجميع الذين كانوا هناك، الذى لم تخطئ بوصلته هدفها قط، أعلن منذ أول لحظة وقوفه إلى جانب عبدالناصر وثورة مصر، وكان يرى أن الغزو الفرنسى البريطانى سينتهى بدحره، وأن عهد كرومر قد ولى، وأن عصراً جديداً قد أشرق على العالم، وأن ثورة مصر كانت الناقوس الذى دق إيذاناً ببدء العصر الجديد. وراح يكتب فى الصحف ويناقش فى الاجتماعات، وعندما أصدرنا جريدة الجمهورية (طبعة بيروت) لم ينقطع يوما عن الكتابة، ولم ينقطع يوما عن الحضور، ولم يفتر حماسه فى وقت تردد فيه آخرون انتظارا لظهور نتيجة المعركة. لم يكن أحد منا يتقاضى أجرا، ولم نكن نجد ما نأكله أحيانا، وكنا نتقاسم السيجارة أغلب الوقت. وكان فى بيروت وقتئذ كاتب مصرى جهير الصوت، شهير الاسم، إلى جانب عمله كأستاذ بجامعة القاهرة وكان ينزل فى فندق فخيم، ويعيش عيشة السواح،

وعندما طلبنا منه مقالة ضد الغزو، اعتذر بأنه مريض ولايقدر على الكتابة، ولكن عندما انتهت المعركة لصالح مصر، أرسل إلينا مقالا من نار ضد الاستعمار، ومقالا آخر كله نفاق عن بطولة عبد الناصر ورفاقه، ولم ينس أن يؤكد للقراء ثقته المطلقة في انتصار الثورة. أغرب شئ أننا عندما عدنا إلى القاهرة بقى محمد محمد عودة فى الظل، وارتفع الآخر على رأس الموكب وسافر على رأس وفد مصرى فى مهمة وطنية فى بلاد العالم! وعندما جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن فى عام ١٩٥٩ كان عودة موضع هجوم شديد من بعض التنظيمات السياسية، لأنه لم يذهب معهم إلى السجن، ورموه بكل تهمة، واتهموه بكل نقيصة، وبالرغم من ذلك، ظل خط عودة هو الخط الوحيد الصحيح، هكذا برهنت الأيام بعد ذلك. وبينما أثرى عشرات من الذين هاجموا وركبوا الموجة واحترفوا الهتاف، ظل عودة يكتب ويقرأ، ويسحب وراءه جيشا من المواهب الجديدة، مقتحماً بهم السهوات والعزومات ماسحا على جراحهم مشجعا إياهم بكلماته المتفائلة وثقته الزائدة بنضارة المستقبل بالرغم من كل شئ.

درة ثمينة

كان عودة قد أحدث دويا فى مصر بكتابه صغير الحجم كبير القيمة عن الصين، وكان بحق نموذجاً فى فن الكتابة السياسية، كما كان درساً فى كيفية تحويل السياسة إلى أشعار. كان مستوى رائعاً لأول مرة فى العربية، كان فى مستوى ما كتبه ستيفان زفايج وأميل لودفج، وقد بهر الكتاب الجميع، اليمين واليسار والوسط، وكان كل ما تقاضاه عودة عن

هذا الكتاب ثلاثين جنيهاً مصرياً والشهرة والذكر الحسن! وطبعاً نشر من الكتاب عدة طبعات، وبالرغم من أن عودة أصدر كتباً عديدة بعد ذلك، إلا أن كتابه الأول عن الصين ظل هو درته الثمينة، وبالرغم من نقائه وإخلاصه وبراءته التى تشبه براءة الأطفال، إلا أنه لم يصل حتى فى المهنة التى احترفها طويلاً وعانى بسببها كثيراً، وكان مؤهلاً لها أحسن تأهيل ومسلحاً لها بكل الأسلحة، لم يصل فيها إلى بعض ما وصل إليه تلاميذه والذين تعلموا على يديه.

ملحمة ومأساة

أذكر فى العام ١٩٦٧ أننى ذهبت لمقابلة أحد المسئولين ورشحت محمد عودة لتولى منصب رئيس تحرير جريدة لم تكن منتشرة ولم تكن مؤثرة، وارتسمت على وجه المسئول علامة لم أفهم مغزاها، وتساءل فى دهشة ممزوجة بالاستنكار «محمد عودة!» ورحت استعرض تاريخ عودة وأعدد مآثره، وفى النهاية اكتفى بأن هز رأسه ولم يقطع بشىء، وبعد هذا اللقاء بأيام اختير صحفى باهت اللون والطعم ممسوح الاتجاه، لم يكن يعرفه أحد فى مصر خارج دائرة أسرته، اختير رئيساً لتحرير الجريدة، وبقى متربعا على قبرها ست سنوات طوال. والسبب أن محمد عودة كان يعقد صلاته بالناس «اللى تحت»، وكان عزوفاً عن الاتصال بالناس «اللى فوق»، لم يكن من شلة أحد، ولم تقع عينى عليه فى حفل رسمى، ولم أشاهده قط فى مكتب مسئول، ليس ترفعاً من عودة أو استنكاراً أو خصاماً، ولكن هذه هى طبيعته، يختنق من الأماكن الرسمية، ويضيق بالخطوات المنضبطة، ويكره الانتظام فى

صف. وإذا كـان هو الكاتب الوحـيـد الذى لم يتـربع على منصب فى عصر عبد الناصر، ولم ينم إجتماعياً إلا بالقدر الطبيعى والمرسوم، فما حدث له بعد وفاة عبد الناصر يصلح ملحمة تحتاج إلى شاعر شعبى ومطربة شعبية ليطوفا بها فى الأسواق، وليقصا أحداثها على مسامع الفلاحين فى الحقول، وهى الملحمة التى انتهت بمأساة ونزول عودة ضيفاً على السجن وهو فى سن المعاش، ولكن تلك الأيام التى قضاها محمد عودة فى مصر بعد وفاة عبد الناصر وحتى لحظة دخوله السجن، كانت هى أكثر أيامه حركة وأشدها حرارة، وأغزرها إنتاجاً، وأثقلها مصائب، وأعنفها أحداثاً، ولكنه ظل متشبثاً بالأرض، لم يفكر مرة واحدة فى أن يغادرها إلى الخارج، واعتصم بالله والوطن وبأهله من أبناء الشعب.

***

عندما رحل جمال عبد الناصر، كان محمد عودة قد بلغ الثانية والخمسين. وفى المهنة التى احترفها ـ مهنة الصحافة ـ كان موقعه بعد رحلة شاقة طويلة ومضنية، مجرد محرر سياسى فى إحدى الجرائد اليومية. وكان مرتبه لم يصل بعد إلى مرتب زملائه فى المهنة. أو مرتب بعض تلاميذه. لم يصل قط إلى منصب رئيس التحرير أو منصب رئيس مجلس الإدارة، مع أنه كان أشد الجميع حباً لعبد الناصر وأكثرهم حماساً له. وكانت كل ثروته فى الحياة خمسة كتب من تأليفه، وشقة متواضعة فى عمارة من عمارات الأوقاف فى حى الدقى، وسيارة فيات صغيرة اضطر إلى بيعها بعد ذلك، عندما فشل فى

استعمالها لعدم قدرته عن قيادة السيارة فى بحر زحام القاهرة الرهيب. وبالرغم من المحاولات لاستمالة محمد عودة، إلا أنه لم يتخل أبداً عما يعتقده، ولم يكتب حرفاً ضد قناعاته، وخاض حرباً ضروسا بقلمه ضد كل الذين حاولوا وعملوا وساهموا فى تلطيخ المرحلة الناصرية فى وحل العار.

ولكن مأساة محمد عودة الحقيقية أنه كان يحارب من استفادوا من تلك الفترة والتفوا حول موائدها، وكان عودة هو الوحيد الذى خرج من المولد بلا حمص، ولم يخرج من العهد الناصرى إلا بأمجاده وذكرياته، بينما خرج الآخرون بالمكاسب والمغانم. وكانوا خمسة أو ستة من الكتاب المصريين الذين بقوا فى مصر وتشبثوا بمبادئهم، وكان محمد عودة أكثرهم تشبثًا وأقلهم ظهوراً، وعندما رفع كتاب مصر وأدباؤها عريضة إلى رأس الدولة يستنكرون فيها حالة اللاسلم واللاحرب، ودعوا فيها إلى حسم الموقف، والوقوف بصلابة ضد جيش الاحتلال الإسرائيلى، وطالبوا بضرورة تحقيق مطالب الشعب والانحياز إلى صف الغالبية العظمى من الفقراء ورفع المعاناة عنهم، كان محمد عودة واحداً من الموقعين على العريضة، وكان واحداً من الذين عصفت بهم قرارات السلطة، فنقلتهم من دور الصحف إلى إدارات حكومية وشركات القطاع العام.

وعندما عادت الأمور إلى وضعها الطبيعى بعد حرب أكتوبر، اشتعل محمد عودة حماسا للمصرى العادى الذى استطاع أن يقهر الصعب، وأن يصنع المستحيل ويعبر قناة السويس ويدك حصون خط بارليف.

ولكن الأمور سارت بعد ذلك في عكس الاتجاه الذى كان يحلم به عودة، انقسم المجتمع المصرى إلى قسمين: الذين عبروا والذين هبروا.

وفى هذا الجو المتوتر آثر أحمد بهاء الدين أن يهاجر إلى الكويت، وهرب عشرات من الكتاب المصريين إلى بلاد عربية أو أوروبية، وهرب محمد عودة ولكن إلى داخل مصر. انكفأ على كتبه يلتهمها، وعكف على تأليف عدة كتب صدرت تباعاً كانت بمثابة بصيص من النور وسط الظلام الدامس، واختار الاستقلال التام وسط التيارات المتصارعة والحياد وسط صراع الأنظمة العربية، ورفع شعار العروبة دون إنضواء وبغير انحياز. وتفرغ محمد عودة لكتبه، وأدار ظهره لمجتمع العمولات والمكافآت والصفقات والمشروعات، ولكن هذا المجتمع نفسه أبى أن يتركه. وعندما عصفت بمصر قرارات سبتمبر ١٩٨١ كان محمد عودة ضمن الذين ألقى القبض عليهم وكانت التهمة الموجهة إليه، التجسس، والقضية التى تضمه، اسمها التفاحة، وكانت تهمته أنه اجتمع مع عبد السلام الزيات نائب رئيس الوزراء السابق.

وعندما دخل محمد عودة السجن كان قد بلغ عامه الثانى والستين، وفى بلاد أخرى يكرم الكتاب والأدباء الذين يبلغون هذه السن، وتقدم لهم الجوائز والعطايا، امتناناً وشكراً لهم على ما قدموه خلال حياتهم الطويلة، ولكن نصيب محمد عودة كان مائة يوم فى السجن وإتهام حقير بالتجسس، وهو العاشق الذى تدله حباً فى مصر، وهو الشاعر الذى تغنى بكل ذرة تراب فى أرضنا، وهو الكاتب الذى كان مداده عرق الناس وزحام الطريق ومعاناة الأغلبية الساحقة. وبعد ٦ أكتوبر

١٩٨١ قدر لمصر أن تعود إلى الطريق الصحيح، وقدر لمحمد عودة أن يغادر سجنه بعد ذلك.. خرج بلا مساءلة وبلا محاكمة، خرج لأن التهمة كانت ملفقة، وخرج لأن المتآمرين بعضهم إنتقل إلى رحمة الله وبعضهم إنتقل إلى سجون الدولة، وبعضهم فر هارباً خارج البلاد.

وعاد محمد عودة هذه المرة لينقب في تاريخ مصر عن أعظم أيامها وأخلد معاركها، ورسم لنا وللأجيال القادمة صورة زاهية الألوان عن الفلاح عرابى، والشركسى الوطنى محمود سامى البارودى، وعن اللورد الوقح كرومر، وعن الصايع الخالد عبد الله النديم. وكان كتابه «سبعة بشوات» بمثابة تاريخ جديد لمصر المعاصرة، ووجهة نظر فلاح مصرى مثقف فى فترة هى بحق من أعجب وأغرب وأخصب فترات تاريخها على المدى الطويل.. وإذا كانت الأيام قد زحفت بعودة إلى الشيخوخة، فهو أقرب الشيوخ فى مصر إلى الشباب، أقرب إليهم بفكره وبموقفه، ويتندر بعض الناس فى مصر ويتداولون مقولة (إذا أردت أن تعرف الاتجاه الصحيح، فاعرف أولاً أين يقف محمد عودة) فهو بالرغم من اضطراب بحر السياسة المصرية وصخب أمواجها، وشدة أعاصيرها وعواصفها، إلا أن بوصلته لم تخطيء الاتجاه الصحيح قط، وسفينته لم تخطيء الميناء المنشود.

وإذا كان محمد عودة هو واحد من الكتاب الموهوبين، وخبير من خبراء السياسة العربية المعدودين، ونجم من نجوم الصحافة والكتابة السياسية، إلا أنه لم يظهر قط فى حديث تليفزيونى، ولم يدع مرة واحدة إلى برنامج إذاعى، وليس عضواً فى المجالس المتخصصة،

وحتى طلب الانضمام إلى اتحاد الكتاب، رفضوه وطالبوه بأن يقدم لهم ما يثبت أنه كاتب، وأغرب شيء أن الذين طالبوه بإبراز هويته الأدبية، هم أدباء وكتاب من أمثال سعد حبلص وسيد المناويشي والأستاذ الكبير أحمد أبو دراع. إنها مأساة ولكنها ليست مأساة عودة وحده، بل مأساة الكثيرين من أمثال محمد عودة، وإن كان هو نفسه يشعر بأنها ليست مأساة إذا قيست بمأساة الوطن كله. والوطن عند محمد عودة هو إمتداد الأرض العربية من الخليج إلى المحيط، فهو عروبى أصيل بلا إدعاء وبلا ثمن، وهو لذلك جاب أرض العرب على قدميه، وجاس خلالها من قرية إلى قرية، من وجدة فى المغرب إلى الحديدة فى اليمن، وله فى كل مكان من الأرض العربية أصدقاء وتلاميذ، ولديه مقدرة على الحياة فى أى بقعة من أرض العرب أسابيع طويلة دون أن يحمل زاداً أو نقوداً، ودون أن يحتاج إلى استضافة رسمية من الدولة التى يوجد على أرضها، فهو قادر دائماً على إيجاد أصدقاء، وقادر دائماً على خلق جو من حوله، وقادر أيضاً على اكتشاف مواهب جديدة، بالرغم من طبقات الصدأ والتراب.

وإذا كان محمد عودة قد خرج من المرحلة الناصرية بلا مغانم، فقد خرج بإيمان لا حد له بأن عبد الناصر كان ضرورة، وبالنسبة للعروبة كان أملاً ومناراً، وأن طريق عبد الناصر هو الطريق السليم، وحلول عبدالناصر هى الحلول الصحيحة. ولقد حمل على رأسه خلال السنوات العشر الأخيرة تراث عبد الناصر وتعاليمه وطاف بها فى الأسواق، وبالرغم من تنكر الأصدقاء وتناقص الأنصار، وهروب المريدين،

وكثرة المستفيدين. وزحام الأرزقية، إلا أنه ظل متمسكاً بالطريق، محافظاً على الطريقة مع عدد صغير من المريدين والأنصار، ومن المؤكد أنه سيظل على الطريق والطريقة حتى لو بقى وحده.

ويبقى بعد ذلك، أن عودة عاش فى جيل واحد مع توفيق عبد الحى وعصمت السادات ورشاد عثمان. وبينما هبر توفيق عبد الحى كنوز مصر الذهبية بدون موهبة وبلا علم، اكتفى عودة بالحصول على كنوزها الروحية. ولذلك سيعيش عودة طويلاً فى تاريخ مصر.. الفنان الذى حول السياسة إلى شعر، والسياسى الذى أثبت أن السياسة حرفة تحرق صاحبها بالنار بعكس مفهوم العصر كله، الذى يؤكد أن الفرق بين السياسى والحرامى هو أن السياسى يدخل السجن أولاً.

□□

المأساة الأسوانية

كان عباس الأسوانى - يرحمه الله - أحد نجوم قهوة عبدالله. وعندما التقيت به أول مرة كان طالبًا بكلية الحقوق، وموظفًا بنادى السيارات، ومحررًا بمجلة مصر الفتاة وعضوًا نشيطًا فى الحزب الذى كان يحمل نفس الاسم. وكان حزب مصر الفتاة الذى اختاره الأسوانى ليمارس نشاطه فيه، حزباً غوغائيًا يؤمن بالأسلوب الهتلرى فى حكم البلاد. كان الحزب يحلم بحكم مصر على نفس الأسس التى قامت عليها تركيا فى عهد مصطفى كمال أتاتورك! ولذلك ناصب الحزب مصطفى النحاس العداء. وسلك كل الطرق لهدم زعامة النحاس والنيل من شعبية حزب الوفد. ولذلك لفت عباس الأسوانى نظرى فى أول لقاء.

وازدادت دهشتى لموقفه عندما توثقت الصلة بينى وبينه. فقد كان ساخراً إلى أقصى حد، فناناً بكل معنى الكلمة، محباً للحرية وللإنطلاق.

وكان يخرج من بيته فى الصباح فلا يعود إليه إلا قبل الفجر! وكان ينتقل من قهوة إلى مطعم إلى رصيف إلى أى مكان، شرط ألا يكون بين أربعة جدران. وكان يقضى سهرته المفضلة فى منزل أمين المهدى وهو فنان عبقرى كان أعظم عازف عود فى زمانه! وكان قد اعتزل العمل العام منذ فترة طويلة وتفرغ لسهراته مع أصدقائه يستمع إلى إنتاجهم الفنى ويشنف آذانهم آخر السهرة بالعزف على العود!

ولكن آمال عباس الأسوانى فى حزبه انهارت فجأة بعد حريق القاهرة. فقد ألقى القبض عليه مع غيره من أعضاء الحزب بتهمة إحراق القاهرة. ووجد عباس الأسوانى نفسه حبيس زنزانة ضيقة فى سجن مصر. وكانت التهمة هى الاشتراك فى مؤامرة لإحراق القاهرة، والعقوبة المنتظرة هى الإعدام! وقضى عباس فى الزنزانة ثمانية أشهر ولم يخلصه منها إلا ثورة يوليو وجمال عبد الناصر. ولو تأجلت الثورة أو فشلت لقضى عباس بقية عمره حبيس الجدران!

وخرج عباس من الزنزانة وقد اتخذ قراراً حاسماً ألا يعود إليها! وكان هذا القرار هو حجر الزاوية فى مأساة عباس الأسوانى. ولم يكره شيئًا فى حياته مثل السجن وهو شىء طبيعى. ولكن الشىء الذى يحتاج إلى تفسير هو كراهيته لثورة ٢٣ يوليو التى كانت السبب الوحيد فى إنقاذه! لعل السبب هو أن الثورة أنقذته من السجن ولكنها قضت على حزب مصر الفتاة، وقضت أيضًا على نفوذ الطبقة التى كانت تتمحور فى نادى السيارات الذى كان والده يعمل فيه، وهى الطبقة التى كانت تحكم

مصر، وكان لها الفضل فى تعليم عباس الذى كان إبنا لموظف بسيط للغاية يعمل ضمن حاشية النادي. لعل ذلك هى الأسباب التى دفعت بعباس إلى اتخاذ هذا الموقف من ثورة ٢٣ يوليو. موقف العداء منها دون استفزازها، والعمل فى ظلها دون ولاء ودون عداء ظاهر أيضاً. واستطاع أن يتلاءم عليها عندما فشل فى التلاؤم معها، ولما كانت ثورة ٢٣ يوليو لم تشغل نفسها بهذا الطراز من الأعداء، فقد أفسحت له صدرها، فلمع فى ظلها، وأصبح كاتبا إذاعيا وكاتباً صحفياً، وكاتبا مسرحيا، وصدرت له كتب، وعقدت له ندوات، وأفسحت سهرات القاهرة مكاناً له، وصار عباس الأسوانى واحداً من مشاهير المرحلة! ولم يفصح عباس الأسوانى عن حقيقة مشاعره إلا بعد وفاة عبد الناصر. فإذا به واحد من أشد أعداء ثورة ٢٣ يوليو وأكثرهم عداء.

وكشف عباس عن حقيقته فإذا به أقرب إلى العهد الذى ولى - عهد الباشوات ونادى السيارات - من العهد الذى لمع فيه وانتشر بفضله. ولكن عباس بالرغم من كل شيء كان فناناً وكان حساساً. ولعله أدرك المأزق الذى حشر نفسه فيه، لعله لمح رأى الناس الذين أحبوه فى نظراتهم، ولذلك سقط صريع المرض فى نهاية حياته، ولزم الفراش وهو لم يبلغ الستين بعد. لقد أصيب بالفالج وراح يتوكأ على عصا، ثم عجز فى آخر الأمر عن النهوض من الفراش، ومات فجأة وذهب قبل الأوان!

وإذا كانت هذه هى مأساة عباس السياسية، فإن مأساته الفنية أكبر. فهو أعظم محدث ساخر عرفه تاريخ مصر. ولا أعتقد أن عباس

الأسوانى كان له نظير كنديم من قبل! كان حديثه يقطر سخرية وفكاهة فى نفس الوقت. وكان يروى قصصاً قصيرة وهو يحكى لو كتبها عباس بنفس الطريقة التى يحكى بها لكان أفضل بكثير من مارك توين! والغريب أنه فى الكتابة لم تكن له موهبته فى الكلام. وجرب كل ألوان الكتابة. كتب القصة القصيرة والرواية والمسرحية والمقال. ولكن موهبته الحقيقية لم تظهر إلا فى المقامات. كتب المقامات الأسوانية. ولو اهتم بها لكانت أفضل من مقامات الحريرى وبديع الزمان. أقول لو اهتم بها، لأن انشغل عنها بعاملين هامين. العامل الأول هو حياته الشخصية. فقد كانت لديه أمور لا يمكن التنازل عنها تحت أى ظرف. الجلوس فى قهوة ريش وقت الظهيرة والحديث مع الأصدقاء. وقضاء السهر فى أى مكان شرط أن يكون وسط مجموعة من الناس يودون الإستماع إليه!! والعامل الآخر هو أنه لم يهتم فى مقاماته بمشاكل مصر الحقيقية. لم يهتم بقضية الحكم والحاكم، ولم يعن بالمشاكل الحقيقية التى تواجه البشر العاديين! وأغمض عينيه عن كل المشاكل، واهتم بمشكلة واحدة، هى أن يكون باستطاعته أن يعمل ويكسب ويسهر وينشر إنتاجه ويحصل على الأجر الذى يريد! ولذلك ضحك الناس على الصياغة ولم يتوقفوا عند المضمون! فلم يكن هناك مضمون حقيقى، ولكنها إلتفاتات ذكية من رجل ساخر له وجهة نظر فى اختناقات المرور وأزمات السجاير واللحوم! هل كان عباس الأسوانى لا يرى المشاكل الحقيقية؟.

بالطبع كان يراها.. ولكنه يتعمد الإبتعاد عنها!.

ولعل ذلك هو السبب الذى جعله - وهو المتكلم العظيم - يبتعد قدر الإمكان عن حلقة المتكلمين العظام مثله.

فقد ابتعد خلال السنوات العشر الأخيرة عن الحلقات التى كانت تضم زكريا الحجاوى وعبد الحميد قطامش وحسن فؤاد وكامل زهيرى! والسبب أن هذه الحلقات كانت تبدأ الحديث بالفن أو بالأدب أو بالكلام الفارغ، ولكنها تنتهى حتما إلى السياسة. ولما كان عباس قد اختار مكانه السياسى إلى جانب حزب مصر الفتاة، فقد آثر الابتعاد حتى لا يتورط ضد الجانب الذى اختاره ولو بالسماع! ولعل ذلك هو السبب فى جفاف نهر فنه فى النهاية. فالمجالات التى كان يرتادها فى النهاية لم تكن قادرة على إعطائه أى شيء، ولكنها كانت تأخذ منه كل شيء!

كان سميعته فى النهاية من طبقة المستوردين والمصدرين، وأصدقاؤه من المؤسسين فى شركات الاستثمار. وهؤلاء سرعان ما انفضوا من حوله عندما داهمه المرض اللعين وألزمه الفراش. ولعل هذا الموقف كان السبب فى التعجيل بنهايته، فقد اكتشف بعد فوات الأوان أنه أخطأ الطريق، وأنه ابتعد كثيراً عن الناس الذين كان من المفروض أن يصادقهم ويكتب عنهم! وأيا كانت النهاية التى انتهى إليها عباس، فقد كان - يرحمه الله - مشروع فنان عظيم لم يكتمل. وكان واحدا من أبناء الجيل، الذى لم يمنح فرصة للنضوج. وإن صدمة السجن بعد حريق القاهرة قد خلعت قلبه من مكانه وقلبت كيانه. وخوفه الشديد من ثورة ٢٣ يوليو لم يكن له مبرر، فهى التى فتحت له طريق الشهرة،

ولم تسجنه يوماً، بالرغم من أن كل أبناء جيله نزلوا ضيوفاً فى سجونها مدداً مختلفة! وانضمامه الأخير بكل قواه إلى عصر الانفتاح لم يكن له ما يبرره، لأنه لم يستفد شيئاً، ولم يجن شيئاً، وخرج من المولد بلا حمص.

حتى إنتاجه الأدبى لم يحفل به أحد بعد موته، حتى البرامج القليلة التى قدمها للتليفزيون مسحوا شرائطها ليسجلوا عليها ما هو أكثر أهمية، مباريات كرة القدم!

وحتى حقوقه الشرعية لم يحصل عليها، وقد أدمت قلبى شكوى منشورة فى الصحف للسيدة الفاضلة حرمه تطلب فيها سرعة إنجاز إجراءات معاشه الشهرى!

ولا أدرى من هو الملوم فى بداية ونهاية عباس المأساوية؟ هل هو عباس نفسه؟ هل هو الجيل الذى ينتمى إليه؟ هل هى المرحلة التى عاشها؟ أغلب الظن أنها كل هذه الأشياء مجتمعة. فهو عاش خمسين عاماً من الثلاثين إلى الثمانين. وهى فترة من أعصف وأخطر وأخصب فترات مصر. نشبت فيها الحرب العالمية، وبدأت فيها حروب فلسطين، ووقع فيها العدوان على مصر، وقامت الوحدة، وفشلت الوحدة، وحدثت هزيمة ٦٧، وتفككت الأسرة العربية، وشهدت الأرض من طنجة إلى صنعاء، كوارث ومصائب ومعارك بالسلاح بين أقطار الأمة! وإذا كان الفنان عباس الأسوانى قد فقد توازنه فى الزلزال فبعض اللوم يقع عليه، وأكثر اللوم يقع على الظروف المحيطة. لأنه لم يرتكب إثماً سوى بعض

أبيات من الشعر، ولعله اختار الشعر لأنه ليس بشاعر. كأنما أراد أن يحتفظ بفنه طاهراً، وتكسب بفن مجلوب! تماماً كما فعل الشاعر كامل الشناوى، حين مدح زعماء الأقلية بمقالات فى الصحف، ولكن قصيدة المدح الوحيدة التى نطق بها كانت لمصطفى النحاس. لأن كامل الشناوى شاعر والمدح بالشعر ينبغى أن يكون للزعيم فقط أما الآخرون فلهم مقالات الصحف وهى أشبه بصرخات فى واد فسيح!

إن المأساة الأسوانية هى جزء من مأساة مصر. ولكنها وبالرغم من كل شيء أقل حدة من مأساة رشدى صالح وغيره. لأن عباس لم يضطر إلى ركوب منبر أو قيادة حزب يعلم هو نفسه أنه مزيف، ولكنه عاش رغم مأساته مجرد مواطن يريد أن يعيش. صحيح يريد أن يعيش فى جاردن سيتى، وأن يركب سيارة بويك وأن ينفق عن سعة، وأن يقضى رحلة العمر دون زيارة لسجن طرة أو منفى الواحات، ولكنها على العموم كانت مطالب مشروعة، ورغبات فنان غلبان صعد من سرداب المبنى الاجتماعى وأراد أن يحتفظ لنفسه بموضع قدم فوق السطوح!.

ولا أشعر بأسف قدر أسفى على إنتاج عباس الأسوانى، الذى تبدد أغلبه فى نكات حارة وغمزات مريرة وقفشات لاذعة أطلقها فى سهراته وقعداته، وسجل أقلها فى سطور على ورق مطبوع. ولو أن الريح كانت مواتية والظروف مناسبة، لكسبت مصر فناناً عملاقًا ليس له نظير. فقد كان صاحب موهبة فى الحديث متفردة. وإذا كان زكريا

الحجاوى كمتحدث يبهرنى، وقطامش يبهجنى، فإن عباس الأسوانى هو الوحيد الذى كان يضحكنى! ولم أضحك فى حياتى من الأعماق إلا وأنا أستمع إلى عباس الأسوانى. ولكن أغرب شىء أن عباس الأسوانى المقتدر المتمكن كان يصاب بالصمت إذا خرج عن نطاق الشلة. اشتركت معه مرة فى ندوة تليفزيونية حضرها صلاح جاهين وزكريا الحجاوى والفنان محمد رضا والفنان بهجت الرسام، ولم يفتح الله على عباس بكلمة، فقد ارتج عليه أمام عدسات التليفزيون! وذات محاضرة فى مدينة طنطا وكانت المناسبة هى عيد طنطا القومى، وكان فرسان المحاضرة زكريا الحجاوى والأسوانى والعبد لله، ارتج على عباس الأسوانى فلم يفتح فمه بكلمة واحدة، وعجز تماماً عن النطق عندما هم بالكلام! وسألنى بعضهم عقب المحاضرة كيف تشركون معكم رجلاً عاجزاً إلى هذا الحد؟ ويبدو أن عبقرية عباس كانت تتفتح فى حلقة ضيقة وتموت عندما يتسع الميدان. وكان يتألق أكثر إذا اطمأن إلى جميع الجالسين. وهى صفة كان يشترك فيها مع متكلم عظيم آخر هو قطامش! وكان أسلوب عباس فى الحديث يعتمد على سرد قصة مشوقة وأحداثها مثيرة، وكان يسوقها بأسلوب مشوق للغاية. وبينما كل الدلائل تشير إلى نهاية يتوقعها الجميع للحكاية التى يرويها، إذ به يفاجىء الجميع بخاتمة مسرحية، خاتمة لا تتفق مع سير الأحداث وتثبت فساد علم المنطق، وكان أكثر الناس وقارا لا يملك نفسه من الضحك حتى السقوط من فرط الإعياء! وكانت لديه قدرة للتحدث عدة ساعات دون كلل، ودون أن يفقد حرارته! وكان لا يستطيع الصمت ولو كان فى

حضرة أعظم رجال دولة الكلام. المرة الوحيدة التى رأيت فيها عباس صامتًا كانت فى سهرة فى بيت الحجاوى أقيمت على شرف الفنان الكبير زكريا أحمد يرحمه الله! وكان زكريا أحمد ملحناً عظيماً ومتكلما أعظم. وكان حاسماً جداً فلا يسمح لأحد بالكلام. وكان سنه وتاريخه لا يسمحان لأحد بمقاطعته بعكس العتاولة الآخرين. وكان حديث زكريا أحمد مشوقًا ويجبرك على السماع، خصوصاً وأنه يحكى عن فترة لم نشهدها، ويقص أخبار عباقرة لم نكن على قيد الحياة عندما كانوا زينة المجالس والسهرات! كان يحكى عن الشيخ على محمود، وأول مرة جاء فيها الشيخ سيد درويش إلى القاهرة. وخرجنا كلنا من السهرة فى منتهى السعادة لحكايات الشيخ زكريا، وفى منتهى الغم لأن أحداً منا لم تتح له فرصة للكلام. ولكن أكثرنا غماً كان عباس الأسوانى، لدرجة أنه بكى بدموع حقيقية فى الصباح!

رحم الله عباس الأسوانى، أحد عباقرة زمن الحسومات. زمن الولادة المتعسرة والمواليد المشوهين، رحمه الله، فقد كان أشبه بمسدس بدون طلقات!!.

□□

عبادة بن الناطق

كان عبادة فى نظر البعض متسولاً، وفى نظر البعض الآخر معتوها!

فهو متسول لا يسأل الناس ولكنه لا يرفض ما يقدم إليه. وكان مجنوناً ولكن جنونه كان من هذا النوع الهادىء الذى يلمع ويتوهج لحظات قليلة، ثم لا يلبث أن يعود عبادة إلى وعيه وكأنه لم يكن منذ لحظات يجدف أو يخطرف أو يهذى بكلمات لا يفهمها إلا قلة قليلة من الذين كانوا يعرفون عبادة عن قرب!

أما أصل عبادة وفصله فلا أحد يعرف عنهما شيئاً كثيراً، لا أحد يعرف، لأنه لا أحد اهتم، فهو فى تلك الأيام المبكرة من حقبة الأربعينات لم يكن فى مصر من يشغل باله بأمر العقلاء فما بالك بأمر المجانين! كما أن عبادة كان له شبيه فى كل قرية مصرية تقريباً،

وأكثر من شبيه فى كل حى من أحياء القاهرة، والذين اعتادوا الجلوس على مقهى محمد عبد الله فى الجيزة فى تلك السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأخيرة وصاحبتها فوجئوا بوجود عبادة فى المقهى ثم اعتادوا على رؤيته فيها حتى صار جزءاً لا يتجزأ منها، شأنه شأن المقاعد والمناضد والجدران. ولم يكن عبادة عاملاً فى المقهى بمعنى كلمة العامل كما نفهمها هذه الأيام، ولكنه مجرد صعلوك ينام فى المقهى فقط ويحتمى به. ولم يكن يرتدى ملابس ولكن هرابيد تكشف عن جسده أكثر مما تخفى، وكانت رائحته كريهة ونفاذة وتفوح من بعيد، والأكيد أن الماء لم يلمس جسمه منذ أن غادر قريته فى أقاصى الصعيد. ولم يكن يأكل كما يأكل «البنى آدمين» فلم أره فى حياتى جالساً يأكل، ولكنه كان يتناول وجبته وهو يذرع الرصيف أمام المقهى جيئة وذهاباً فى خطوات عسكرية أشبه بمشية الأوزة الألمانية الشهيرة. وكان يتوقف أحياناً ليلقى وفمه محشو بالطعام كلمات صارخة وغامضة وغالباً بلا معنى. ثم يستأنف خطوة الأوزة والأكل من جديد. وكان يدخن بلذة ولكنه لم يدخن أكثر من خمس سجائر فى اليوم. ربما لضيق ذات اليد. وربما لحكمة نجهلها نحن العقلاء ويدركها ذلك المعتوه.

كان أنور المعداوى أكثر زبائن قهوة محمد عبد الله إهتماماً وإحتفالاً بعبادة، وكان يعتقد إعتقاداً لا شك فيه أن وراء عبادة سراً. وكان يستدعيه أحياناً خصوصاً ساعة العصارى ويسأله أنور المعداوى عدة أسئلة عن الأحوال الخاصة والعامة على حد سواء، وكان عبادة يستمع ويضحك ثم يفر هارباً ويختفى لحظات، ثم يعود ليظهر فى مشيته

العسكرية المعهودة ووجهه نحو السماء ويصرخ بكلام، وكان أنور المعداوى ينصت إليه باهتمام مؤمناً بأن ما نطق به عبادة له علاقة بالأسئلة التى طرحها عليه. وعندما اشتدت الحرب العالمية ارتدى عبادة غطاء رأس لمارشال إنجليزى. وكان كلما رأى وهو على رصيف المقهى جندياً من جنود الحلفاء تحرش به، وكلما مضت سيارة عسكرية من الميدان بصق عليها عبادة فى زهو واستعلاء. ولم يشعر عبادة بأزمات الحرب العالمية، لم يشعر بأزمة التموين، ولم يشعر بأزمة السجائر ولم يشعر بأزمة الدقيق، فقد كان بحالة من إنعدام الوزن والرغبة والحاجة.

ولكن عندما انتصر الإنجليز على الألمان فى معركة العلمين نزع عبادة غطاء رأسه المارشالى وراح يردد شعاراً واحداً لا غير (سعد باشا قال مفيش فايدة)، وظل يردد هذا الشعار سنوات طويلة ولم يتخل عنه إلا عندما قامت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨. فجأة انتاب عبادة نشاط لم نعهده فيه من قبل، واشترى نموذج بندقية خشبية راح يحملها على كتفه وهو يخطو خطوة الأوزة على رصيف المقهى، وكانت معسكرات التطوع أمام الشباب الراغبين فى الاشتراك فى حرب فلسطين قد بدأت العمل على قدم وساق! وبدأت تظهر طوابير المتطوعين عقب صلاة الفجر تجتاز شوارع الجيزة مرددين شعارات الله أكبر ولله الحمد، الذى أصبح شعار عبادة هو الآخر. وعندما انتهت الحرب بهزيمة الجيوش العربية ألقى عبادة سلاحه هو الآخر وعاد إلى شعاره القديم «سعد باشا قال مفيش فايدة». ولكن بمرور الوقت تطور

جنون عبادة فأصبح من النوع الخطير. فقد كان يصرخ بشدة وينتابه هياج أشد، ولم يحفل أحد بأفعال عبادة باعتباره مجنوناً وفاقد الأهلية وعديم التربية والأصل!

المهم أن عبادة كان أول من أيد ثورة ٢٣ يوليو بحماس، وارتكب من أجل ذلك عملاً كلفه عدة كفوف هوت على صدغيه من يد المعلم عبدالله الذى كان أقرب إلى الوحش منه إلى «البنى آدمين». ولكن هذه الكفوف الساخنة لم تمنع عبادة من القيام بعمل آخر لتأييد ثورة ٢٣ يوليو ولكنه تكلف فى المرة الثانية عدة أسنان سقطت من فمه. وأصل الحكاية أن عبادة كان يقوم بتنظيف المقهى وترتيب المقاعد والطاولات فى الصباح الباكر، وكان يفتح الراديو ليستمع إلى القرآن الكريم وهو يؤدى عمله المرهق، هكذا تعود منذ أن وجد بالمقهى وإلى آخر يوم فى حياته. ولكن فى ذلك الصباح من يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استمع عبادة بعد القرآن مباشرة إلى بيان يذيع أخبار حركة قام بها عدد من ضباط الجيش، وهو البيان الأول الذى أذاعته ثورة يوليو، وهو غير البيان الذى أذاعه أنور السادات فى الساعة التاسعة صباحاً. استمع عبادة إلى البيان الأول الذى لم يكن مفهوماً بدرجة كافية، ولم يكن صريحاً إلى الدرجة التى تكشف عن وجود ثورة فى البلاد، ثم انقطع الإرسال فجأة. ولكن يبدو أن عبادة وحده هو الذى فهم الرسالة فقد ترك عمله على الفور واختطف صورة «فاروق» المعلقة على الجدار وحطمها، وراح فى مشيته العسكرية المعهودة على الرصيف يسب ويلعن بصوت صارخ فى هذا الوقت المبكر من الصباح فاجتمع حوله بعض المارة، وجذبت الضجة

بعض عساكر الشرطة، واكتشف أحدهم أن صورة «فاروق» ممزقة وإطارها محطم فنظر إليها وإلى عبادة فى بلاهة ظنا منه أنها نوبة من نوبات جنونه. ولكن الضجة أيقظت المعلم عبد الله صاحب المقهى من نومه، وعندما اكتشف ما جرى انتابه غضب شديد وهوى بعنف وبضراوة على وجه عبادة حتى أسال الدم من أنفه، والغريب أن عسكرى الشرطة تدخل لحماية عبادة من غضب المعلم عبد الله. لم يكن المعلم عبد الله يعلم شيئًا مما حدث ولا عسكرى الشرطة أيضًا! وربما لم يكن أحد آخر من الذين توافدوا على الضجة يعلم شيئًا. المهم أن الضجة انتهت والناس تفرقت وجلس عبادة على الأرض يمسح دمه ويشرب كوباً من الشاى وينظر إلى الميدان فى بلاهة وفى هدوء. ولم يستمع إلى نداءات المعلم عبد الله ولم يهتم بها، فقد أعلن الاضراب عن العمل! وعندما أذيع بيان الثورة الثانى الذى أذاعه أنور السادات هاج الناس فى الشوارع فرحاً فترة قصيرة، ثم لزموا الصمت لأن البيان حذر من القيام بأى أعمال شغب وهدد المتظاهرين بأنهم سيلقون مصير الخائن، ولذلك خيم الصمت على الشوارع والتزم الناس الهدوء واكتفوا باختلاس النظرات إلى سيارات الجيش وهى تجوب الشوارع وقد صوب الجنود بنادقهم إلى صدور المارة.

الوحيد الذى لم يلتزم ببيان الثورة هو عبادة، ما إن شاهد سيارة جيش تعبر الميدان حتى هجم عليها كالوحش وفى نيته أن يحتضن كل أفراد القوة فرداً فرداً وأن يطبع القبلات على وجناتهم وعلى أيديهم أيضًا! ولكن عساكر الجيش لم يدركوا القصد من هجوم عبادة على

السيارة. اعتقدوا أنه ربما كان عدوا من أعداء الثورة، وربما عميلاً من العملاء، وربما جاسوسًا لجهة أجنبية، فانهالوا عليه ضرباً بكعوب البنادق حتى سقطت عدة أسنان من فمه وسقط عبادة مغمى عليه، وعندما علم قائد السيارة أن الرجل معتوه استقل السيارة مع جنوده ومضى.

وهكذا دخل عبادة التاريخ كأول مؤيد لثورة ٢٣ يوليو وأول ضحاياها. وتألق عبادة فى بداية الثورة. وعندما انعقدت محكمة الثورة التى حاكمت زعماء الأحزاب كان يهتف بميدان الجيزة بكلمة واحدة هى (إعدام)، ولكن يبدو أن ثورة يوليو لم تستمع إلى صرخات عبادة، ولذلك فتر حماسه بها وراح يهاجمها بين الحين والآخر بالصرخات كل مساء وهو يذرع رصيف ميدان الجيزة فى مشيته العسكرية الخطيرة! وكان صوته مزعجاً إلى الحد الذى يجذب انتباه الناس، وعندما صار أكثر إزعاجًا جذب انتباه المباحث فضربوه علقة فى قسم الجيزة ليكف عن ترديد الشعار.. ولكن عبادة لم يكف ولم يتوقف وظل يردد الشعار حتى حدث العدوان الثلاثى على مصر، وانتابت عبادة حالة من الجنون استغرقت وقته كله وأهمل عمله بالمقهى. ارتدى عبادة صحنا على رأسه كأنه خوذة من التى يستعملها الجنود فى الحرب، وحصل على نموذج خشبى لبندقية، وراح يتدرب نهاره كله على إطلاق النار. وكان كلما نهاه أحد عن الصراخ ازداد صراخاً، وكان يبكى أحيانًا عقب نوبة الصراخ. وأحياناً أخرى كان يضحك ضحكاً هستيريا! وفى المساء عندما يخلو الميدان من الحركة وتتوقف مركبات الترام ويهدأ كل شىء وينام،

كان عبادة يتوسط الميدان ملقيا بأوامره إلى الفيالق الوهمية التى يقودها للتحرك فى المعركة حسب الخطة المرسومة. وعندما انتصرت مصر والعرب فى معركة بور سعيد خلع عبادة ملابسه ووقف يصرخ فى الميدان شديد الابتهاج حتى أغمى عليه.

وعاد عبادة أيام الوحدة ليغنى مع الوحدة أحياناً ويغنى ضدها أحيانًا! واختل عقله أكثر فأصبح يضحك ويبكى فى وقت واحد. وساءت أحواله أكثر فاتسخت ملابسه أكثر وطالت لحيته وشعر رأسه، وصار منظره أشبه بمنظر قيس الذى كان يجوب البرارى. وكان زكريا الحجاوى يداعبه أحياناً فيسأله أسئلة فى السياسة، والغريب أنه كان يجيب على زكريا إجابات يقصر عنها بعض أدعياء الأدب والثقافة. وشاخ عبادة وطعن فى السن، ولكن عيناه ظلتا تحملان نفس البريق الوهاج النفاذ القلق المشع الذى هو مزيج من الجنون والذكاء. وكانت لديه حاسة شديدة يتشمم بها رائحة المواهب الحقيقية. ويحتقر المنافقين والأدعياء. كان ينفر بشدة من مخرج إذاعى، فإذا جاء إلى ركن أنور المعداوى انصرف عبادة بعيداً عن هذا الركن إلى ركن آخر! ويظل بعيداً لا يقترب من ركن أنور المعداوى إلا إذا انصرف المخرج الإذاعى إياه. وكان يبدى رأيه فى أحد المدعين الذى كان يعتنق الفرعونية مذهبًا. وكان الأخ المدعى إياه عالى الصوت دائمًا، غريب المصطلحات والألفاظ أيضًا، غريب النظريات كذلك، وكان يزعم بأن الهرم الأكبر مقام فى نقطة فى منتصف الأرض تماماً، وكان يزعم أيضًا أنه إذا دمر الهرم الأكبر، فإن الكرة الأرضية ستدمر عن آخرها لا محالة!

وكان عبادة يحضر إلى ركن أنور المعداوى كلما جاء الأخ إياه، ويظل عبادة يضحك بينما الأخ إياه يتحدث. وربما لم يكن أحد من الجالسين يلحظ العلاقة بين ضحك عبادة وحديث الأستاذ إياه إلا أنور المعداوى وزكريا الحجاوى. وكان عبادة يأنس إلى نعمان عاشور ويحب مجلسه، وكان نعمان يتحدث إليه أحياناً وكأنه (أى عبادة) هو رائد المسرح المصرى الحديث والقديم أيضاً. وكان يعشق زكريا الحجاوى وعبد القادر القط ومحمود شعبان. وكان ينفر من الشيخ عبد الحميد قطامش والسبب أنه رفع الكلفة بينه وبين قطامش ذات يوم فزجره قطامش زجراً عنيفاً، وعبثًا حاول قطامش أن يتودد إليه بعد ذلك دون جدوى، اتسعت الفجوة بينهما وظلت العلاقة متوترة بين الاثنين حتى آخر يوم فى عمر قهوة عبد الله.

ولقد وقع بصرى عليه آخر مرة وهو فى حالته المعهودة ذات يوم من مارس ١٩٥٩ . كان يقف على مقربة من ركن أنور المعداوى وهو يصرخ فى جنون (قرب) بفتح القاف وتشديد الراء، وكأنه يدعو شيئًا من الاقتراب منه، شيئًا مجهولاً يحن إليه وينتظره. وظل يردد هذا الشعار طول الليل. وقبيل الفجر انصرفنا إلى منازلنا ومددت يدى إلى مصافحة عبادة، ولكنه لم يصافحنى، وقف متخشباً كأنه تمثال حجرى ليس فيه من آثار الحياة إلا صراخه. والعجيب أنه كان يصرخ دون أن تختلج عضلة واحدة من وجهه - وفى تلك الليلة شاءت الأقدار ألا أبيت ليلتى فى منزلى، وجدت رجال الأمن فى انتظارى عند باب البيت، وأخذونى من يدى إلى الواحات الخارجة لأغيب هناك فى بطن

الصحراء الحارقة والمجهولة نحو عامين. وعندما أفرج عنى اكتشفت أن قهوة عبد الله قد انهدمت. لم يعد منها شيء. وبحثت عن عبادة فى كل مكان، وعندما اهتديت إليه هالنى منظره. فلم يكن هذا عبادة الذى أعرفه. انطفأ البريق الذى كان فى عينيه، وضاع الذكاء وبقيت مسحة الجنون فقط! ولم يعد يصرخ ولكنه كان يعوى أحياناً مثل كلب دهسته سيارة ضخمة على الطريق. كان ينام فى قهوة المعلم مرجان وكان روادها من الباعة والحرفيين، ولم يكن هناك صلة بينها وبين مقهى محمد عبد الله، كان أنور المعداوى وعبد القادر القط وزكريا الحجاوى والشيخ قطامش وعبد الرحمن الخميسى ومحمد على موافى ونعمان عاشور وعشرات من شبان مصر النوابغ يتناقشون فى المقهى ليلاً، وكان ركن أنور المعداوى كأنه مصر كلها مصغرة ومطهرة، وكان عبادة جزءاً من هذا الركن.

والآن تغير كل شيء. تغير الزمان والمكان أيضًا. حلت محل قهوة عبد الله عمارة ضخمة، واحتل مكان القهوة فرع لبنك مصر، توارى الفن قليلاً ليتصدر الاقتصاد، وراحت أيام المناقشة، وحلت أيام الحساب. المجد الآن للمهندس وللمحاسب، وعلى الناقد والأديب والشاعر والصعلوك أن يتنحوا جانبًا، فمصر تدخل مرحلة جديدة وهذه أول خطوة لها على الطريق.

لقد نشأ عبادة وقهوة عبد الله معًا، وذاقا الشهرة والمجد معًا، ثم تنكرت الأيام ودارت على القهوة وعلى عبادة معًا، وعندما تحولت

قهوة عبد الله إلى أنقاض سقطت الأنقاض كلها على رأس عبادة، وعندما وقع بصرى عليه لحظة عثرت عليه في قهوة مرجان خيل إلى أنه خارج لتوه من تحت الأنقاض. ولقد أنكرنى وأنكرته، انتابنى الأسف إلى الحال التى وصل إليها. وانتابه الشك لأنه لم يعرفنى، وكان عبادة على حق فلقد أصابنى أنا الآخر ما أصاب قهوة عبد الله وعبادة معا، انهدم شيء ما فينا جميعاً، انهدمت الأحجار فى قهوة عبد الله، وانهدم الذكاء والجنون الذى يقترب من الإلهام فى عبادة، وانهدم الإحساس بالأمن فى داخل العبد لله، نظراتى أصبحت زائغة، وشعرى حلقوه فى الواحات. ولم يتعرف عبادة على شخصى وفر مذعوراً من أمامى، فقد ظن أننى أسخر منه أو أرجو إيذاءه. وتدحرج عبادة بعد ذلك وهجر القهوة وبات على الأرصفة وتشرد فى الشوارع يلتقط غذاءه من صناديق الزبالة.

وتفرقت شلة قهوة عبد الله، انشغل بعضهم بالحياة، وانشغلت الحياة ببعضهم. بعضهم غرق فى النور وبعضهم انسحب إلى الظل. وبموت أنور المعداوى لم يعد يسأل عن مصير عبادة إلا نعمان عاشور أحياناً وزكريا الحجاوى بين الحين والحين. وذات صباح من يوم شديد القيظ فى صيف ١٩٦٣ كنت فى طريقى إلى المطار لألحق بالطائرة المتجهة إلى لندن إذ بعسكرى شرطة يتمطى كسلانا على الرصيف المواجه لقهوة مرجان وثلاثة من المارة وجثة ممدة على الرصيف وقد غطوها بأوراق صحف. وسألت عن الخبر وأجابنى الشاويش فى بلاهة (ده واد صايع قتلته عربية ليلة إمبارح).

ولم أعرف أن القتيل الذى كان ممداً على الرصيف تخفيه أوراق الصحف هو عبادة إلا بعد ذلك بثلاثة أعوام.

وداعًا عمنا المجنون عبادة، كنت الوحيد الذى نطق بكل ما فى صدره فى عصرنا، كان له من جنونه حماية، ولكنه مات فى صمت، ولم يشيعه أحد، وكما جاء وحيداً.. مضى وحيداً، وإن كانت ذكراه بقيت حية فى صدور الذين عرفوه وأحبوه، وتمنوا أن يصلوا إلى ما وصل إليه عبادة من انعدام الوزن والرغبة والحاجة إلى أى أحد أو أى شىء، طبقة من السمو لم يصل إليها إلا قلة نادرة من الرجال فى التاريخ وقبل التاريخ، ومنهم بالقطع هذا المعتوه عبادة!!.

□□

شاعر من بغداد

لم تكن قهوة عبد الله قهوة مصرية فحسب، ولكنها كانت قهوة عربية أيضًا، وقد شهدها وحضر مجالسها أدباء وشعراء وفنانون عرب من كل الأقطار، عدنان الراوى وشفيق الكمالى من العراق، ونزار قبانى وأديب نحوى من سوريا، وعبد الهادى الهونى من ليبيا، ومعين بسيسو وأبو سلمى من فلسطين، والفيتورى من السودان!

كان عدنان الراوى عضواً أصيلاً فى ندوة القهوة، وكان يقضى أغلب أوقاته فيها عقب لجوئه إلى القاهرة هارباً من طغيان نورى السعيد وعبد الكريم قاسم، وغوغائية من سموا أنفسهم بالتقدميين العراقيين الذين اعتبروا العروبة والقومية رجسا من عمل الشيطان.

وكان عدنان الراوى شاعراً يرى أن للشعر وظيفة واحدة هى القتال ضد أعداء العروبة، ولذلك كان أول من اضطهده نظام عبد الكريم

قاسم، ونظام نورى السعيد من قبله، فاضطر إلى الهرب عبر الحدود السورية ومن هناك جاء إلى القاهرة هارباً من جحيم بغداد، ولما كانت له علاقات سابقة بأنور المعداوى، فقد اختار السكن فى حى الدقى وجعل من قهوة «عبد الله» مكاناً مختاراً لتدبيج قصائد من نار ضد العصبة التى استولت على بغداد فى غفلة من الزمن.

كان من عادته أن يحضر إلى المقهى فى الضحى، فيجلس ساهماً يرقب حركة الميدان، ويظل على هذا الوضع ساعات، ثم ينصرف فى الساعة الثانية بعد الظهر ليذهب إلى شقته فيستريح بعض الوقت قبل أن يعود إلى المقهى فى السادسة مساء، فيجلس صامتاً نحو ساعتين قبل أن يندمج فى حوار ساخن حول العروبة والشعوبية والوحدة وأنصار التجزئة والإنقسام! وكان يبدو فى تلك الأوقات بالرغم من ضآلة حجمه كأنه بركان تغلى فى أعماقه الحمم، ولكنه يعود إلى هدوئه وصمته بعد نهاية الجلسة ويعود إلى الحملقة فى الميدان حتى يغلق المقهى أبوابه، فيهب متخذاً طريقه إلى شقته سيرا على الأقدام، وكان يسلك طريقاً واحداً لا يغيره عبر شارع المدارس حيث تقع جامعة القاهرة، ومن هناك إلى شارع الدقى حيث يقيم. ولقد حاولت مراراً وفى المرات القليلة التى شاركته فيها رحلة السير على الأقدام أن أسلك طريقاً آخر عبر شارع «مراد» أو شارع «النيل»، ولكنه كان يرفض بشدة، فقد كان يشم فى شارع المدارس رائحة شوارع مشابهة أحبها فى أحياء الأعظمية وصدر القناة والسبع أبكار فى بغداد.

وكان عدنان الراوى يعشق بغداد بجنون، كان يتوقف أحياناً كثيرة عند منظر يصادفه فى الطريق ويزفر فى حسرة ويقول فى هدوء وفى أسى: هذا المنظر له شبيه فى سوق الغزل ببغداد، أما شارع النيل فكان يذكره بشارع أبى نواس على شاطىء دجلة، وكان يتردد كثيراً على شارع الموسكى لأنه كان يشبه شارع الرشيد.

وكان يرى أن العراق هو أهم جزء فى الوطن العربى وأخطره أيضاً، إنه أخطر من فلسطين، لأن فلسطين تقع فى قلب الأمة، وقد ضاعت من قبل ولكن العرب استردوها، لأن العرب حولها من كل مكان، أما العراق فهو نتوء خارج من جسم الوطن العربى ويحيطه أغراب من كل جانب، ولذلك فالخطر عليه أكبر، لأن الأعداء يمكنهم لو تمكنوا أن يقضموا منه قطعة وراء قطعة، ولو ضاعت قطعة، فمن المستحيل أن تعود، وكان حزيناً ومهموماً لأن عبد الكريم قاسم وبطانته ليسوا أمناء على تراب العراق، لأن التراب ليس له قداسة فى نظرهم، إنما القداسة والفداء للطبقة، بغض النظر عن اللون والجنس والدين. وعندما سألته ذات مساء ببراءة متحمس لم تنضجه الأحداث بعد السبب فى مجيئه إلى القاهرة، ولماذا لم يستقر فى بيروت مثلاً وهى أقرب إلى بغداد قال، هذا سؤال وجيه وإن كانت الإجابة عنه ينبغى أن تكون معلومة لديك. ولما بدا على ملامحى أننى لم أفهم، قال صحيح بيروت أقرب، ولكن فى السياسة القرب والبعد ليس له فضل، ولكن الفضل كله للتأثير، ولهذا السبب جئت إلى القاهرة، لأنها أكثر تأثيراً على بغداد من بيروت أو غيرها من العواصم، ولأن مصر هى القطر القاعدة، وعلى كل

المقاتلين من أجل العروبة والحالمين بدولة الوحدة أن يحتشدوا جميعًا فى القاهرة وليس فى أى أرض سواها، لأن الاحتشاد فى مكان آخر هو مضيعة للوقت. ولعل هذا هو السبب الذى أوقع عدنان في تناقض حاد مع بعض فصائل الثورة العربية التى لم تكن تؤمن بما يؤمن به عدنان، ولم تكن ترى ما يراه.

والحق أقول إننى من خلال صداقتى لعدنان الراوى التى امتدت عدة سنوات، كنت أتصور ـ ولا أدرى لماذا ـ أنه يعيش سعيداً فى القاهرة، فهو لا يؤدى أى عمل، وهو يقضى نهاره كله على المقهى مع الأحبة والأصدقاء، وهو حر يقرض الشعر ويتغنى ببغداد ويكافح وهو فى مأمن من الخطر. إلى أن اكتشفت العكس! ففى ذات مرة من المرات التى انفردت فيها بعدنان فى المقهى، راح يحكى لى عن القلق الذى يأكله، والألم الذى يعتصر قلبه، وعن الضياع الذى يشعر به غالباً، وعن الإهانات التى تلحق به أحياناً، من بعض صغار الموظفين «الهلافيت» الذى يعملون فى أجهزة الدولة، وقال وهو يزفر بشدة، لولا المبادىء التى أعتنقها والهدف الذى أسعى إليه، لآثرت العيش فى بغداد فى أى وضع وتحت ظل أى نظام، ولكنه قدرى، ولم يولد بعد من يستطيع تغيير مسار الأقدار!

ولم أصدق عدنان، أو بمعنى أصح لم أقتنع بما قال، ظننته يبالغ فى وصف مشاعره، ولكنى وبعد مرور عشرين عاماً على كلمات عدنان الراوى التى قالها فى قهوةعبد الله ذات مساء، تذكرته عندما كنت مقيماً

فى المنفى والغربة وقد سارت بى الأقدار إلى موقعه السابق وأصبحت لاجئًا وقضيت تسع سنوات طويلة فى هذه الغربة، وتمنيت فى بعض الأوقات لو كان عدنان الراوى على قيد الحياة، لقلت له صدقت ياعم عدنان، فما أبشع أن يشعر الإنسان أنه مثل ريشة فى مهب الريح، وما أتعس لحظات الحيرة والضياع، وما أفظع أن يتحكم فى الحر الهارب بعض هلافيت الموظفين الذين هم لكثرتهم ووجودهم فى كل الأقطار، دليل على أننا أمة واحدة دون جدال!

وكلما رجعت الآن إلى تلك الأيام فى أواخر حقبة الخمسينات وأوائل حقبة الستينات، أتذكر كيف كان وجه عدنان مرآة لما يحدث فى بغداد. عندما اندلعت ثورة الشواف فى الموصل، كاد يرقص طرباً وتخلى فى تلك الليلة عن وقاره المعهود، وعندما انتكست الثورة، بدا عدنان كأنه ميت خارج من قبره وبعدها صار يائساً من تغيير الأحوال، وعندما تطورت الأحوال فى بغداد إلى الأسوأ، وانطلق المهداوى خلف أحرار العراق، وأسرف فيهم قتلاً وتشريداً، أصبح عدنان يختفى من المقهى بالأيام كان يلزم شقته فلا يغادرها، ويبتعد عن الأصدقاء، فلا يذهب لأحد ولا يستقبل أحداً، واعتدنا نحن رواد القهوة هذا الغياب، فلم نعد نلح فى السؤال عندما يبتعد عن أعيننا، ولكن غيابه الأخير طال، فذهبنا نسأل عنه، واكتشفنا أنه فى المستشفى. وحكى لنا وهو على سرير المرض، كيف أنه يعانى كحة شديدة لم يستطع التخلص منها، وقال إن الأطباء نصحوه بالإقلاع عن التدخين، وضحك فى مرارة وقال، لقد أقلعت عن الوطن، والآن جاء دور الإقلاع عن الهوايات! وقال بعد

صمت قصير، مـاذا يبقى من الإنسان؟ وخرج عدنان من المستشفى ولكنه سرعان ما عاد إليها، وأصبح يتردد على المستشفى بين الحين والحين، ولكنه ازداد نحولاً، وضربت الصفرة فى وجنتيه، وذبلت عيناه وعللنا مرضه إلى شدة حنينه لبغداد.

وأصبح عدنان شديد الخوف، ليس من المرض أو الموت، ولكن خوفاً من أن يموت وهو بعيد عن مسقط الرأس، ودون أن تكتحل عيناه برؤيته من جديد.

وتهدمت جدران قهوة محمد عبد الله، وزالت كلها قبل أن ينهار النظام الذى كان قائماً فى بغداد، واضطر إلى مغادرة قهوة عبد الله إلى قهوة انديانا التى كانت مقصداً لكل اللاجئين القادمين من بغداد، ولكنه كان يؤثر الوحدة والصمت. وذات صباح جاءه الفرج، فقد سقط النظام الذى كان قائمًا فى بغداد. وطار عدنان إلى بغداد، ولكنه سرعان ما عاد ليواصل علاجه فى القاهرة.

فى تلك الأثناء كان الأطباء قد اكتشفوا مرضه الحقيقى، كان داء السرطان قد انتشر فى صدره وكبده وتوغل فى أمعائه، وعندما عاد إلى القاهرة كان قد فقد نصف وزنه، وافتقد حماسه وحيويته، وعندما سألته عن الأحوال فى بغداد، أجاب فى ابتسامة باهتة: تغيرت بغداد وتغيرت أنا الآخر، ودخل المستشفى فى القاهرة لعدة شهور، ولكنه ظل متمسكاً بعادة قديمة لديه، فقد كان يكتب خطابات يومية لعدد من أصدقائه شرح لهم مرضه وتطوراته ويضمنها أبياتاً من شعره كتبها حديثًا.

وكان شعره فى تلك الفترة غاية فى العذوبة والصفاء وكأنما تحول عدنان فجأة إلى صوفى يحلق فى ملكوت الله. واقترح عدنان فى أحد خطاباته لأنور المعداوى أن يبحث له عن ناشر فى القاهرة ينشر ديوان شعره. وفى خطاب آخر كتب يقول لأنور المعداوى: إذا قدر لى الشفاء فسأبادر باستكمال بناء دارى التى تقع بمنطقة ساحرة على صدر القناة فى بغداد. ولكن المرض اللعين كان قد أنشب أظافره فى لحمه وفى عظامه، ويبدو أنه مل طول الرقدة ومرارة الوحدة، فترك المستشفى وغادر القاهرة عائداً إلى بغداد.

وعندما زرت بغداد بعد ثورة ١٤ رمضان ذهبت لزيارة عدنان الراوى فى منزله بصدر القناة، ولكنى كرهت اليوم الذى ذهبت فيه إليه، لأننى لم أتعرف عليه إلا بصعوبة، وعندما رأيته أنكرته، لم يكن هذا عدنان الذى عرفته، أين الأمل؟ والحيوية؟ أين البركان الذى كان فى داخله؟ والتصميم الذى كان فى عينيه؟ لقد انطفأ كل شيء فجأة وأصبح الرجل حطامًا وشبحًا، وهو بعد على مشارف الخامسة والأربعين. وبالرغم من ضعفه وذبوله إلا أنه استقبلنى بحفاوة شديدة، وأصر على أن ينهض من فراشه، وتمنى لو استرد عافيته ساعة من الزمان ليقضيها معى فى حديقة منزله، وليطلعنى على طريقة طهى السمك المسجوف والذى كان يحبه وطالما حكى لنا فى قهوة عبد الله عن السمك المسجوف. وسألنى عن أخبار القاهرة وأخبار الأصدقاء واستفسر عن مرض أنور المعداوى، وعن أحوال زكريا الحجاوى، وعندما نهضت مودعاً إياه تعلقت يده بيدى دقائق. وقال، لقد افتقدت

القاهرة ولياليها ومقاهيها، ولكنى سأعود إليها قريباً لأعرض نفسى على الطبيب وأقضى أياماً مع الأصدقاء. وعندما خرجت من بيته أدركت أنها آخر مرة أراه فيها، وأنه على وشك الانطفاء روحاً كما انطفأ جسداً.

ولقد حدث ما توقعته. فبعد وصولى إلى القاهرة، جاء عدنان إلى القاهرة ليدخل المستشفى مرة أخرى وأخيرة، وبعد أسابيع قليلة مات فى القاهرة، وأقيمت له جنازة كبرى، ونقل جثمانه إلى بغداد ليدفن فى أرضها كما تمنى دائماً، ومضى واحد من جيل المثقفين العرب الذين أقلقهم مصير الوطن وأرعبهم ما يلوح على الطريق من نذر، وسقطوا وهم يحاربون فى الداخل وفى الخارج معاً، أعداء أغراباً فى الخارج وأعداء محليين فى الداخل، ولشدة ما قاتلوا فى المعارك سقطوا صرعى قبل الأوان!

□□

.. وهكذا كان نعمان!

لم يكن عمرى يتجاوز الثالثة عشرة عندما رأيت نعمان عاشور لأول مرة. فقد كنت زميل دراسة لشقيقه الصغير.

وكان يبدو على أسرته أنها على شىء من اليسر! لم يكونوا أثرياء ولم يكونوا فقراء، ولكنهم كانوا «ناس طيبين» بالتعبير المصرى الفلاحى. ثم اعتدت رؤية نعمان بعد ذلك وهو جالس فى ندوة أنور المعداوى على قهوة عبد الله، فقد كان عضواً أصيلاً فى الندوة، بينما كنت أجلس مع شلتى بعيداً عنها، فلم تكن السن تسمح بعد بالاقتراب من مجلس الأساتذة الكبار! ولكن عندما حدث اللقاء بينى وبين الندوة عن طريق العم زكريا الحجاوى، اكتشفت أن نعمان عاشور هو أقرب أعضاء الندوة إلى العبد لله، فقد كان فى منتصف الطريق بينى وبين زكريا الحجاوى وعبد القادر القط والشيخ قطامش. وكانت تعليقاته حارة وساخرة، ولكنه كان يتلفت حوله فى حركة غير إرادية كلما صدر عنه تعليق من هذا

النوع. ثم أدركت السر عندما علمت أنه كان ضمن المعتقلين الذين ساقهم إسماعيل صدقى باشا إلى السجن، وكان نعمان ضمن الذين أفرج عنهم رهن المحاكمة! وبالرغم من استقراره النسبى فى وظيفة حكومية محترمة إلا أنه كان دائم القلق. وربما كان خوفه الدائم من الحكومة هو الذى دفعه إلى العمل كسكرتير صحفى للدكتور زهير جرانة وزير الشئون الاجتماعية فى عهد فاروق! ومن المؤكد أن قيام ثورة جمال عبد الناصر قد خففت من قلقه، وكان فى أسعد أيامه عندما جاء إلى وزارة الشئون الاجتماعية رجل فاضل من ريف مصر، تثقف فى جامعات أوروبا وأمريكا، وانبهر بنظم الحياة، وعاش على أمل أن يسود مصر مناخ مثل هذا المناخ الذى عاش فيه يومًا ما فى الغرب. كان الدكتور عباس عمار هو الذى بث الطمأنينة فى قلب نعمان عاشور. ومن المؤكد أن نعمان بدأ يمارس الكتابة للمسرح فى تلك الأيام المبكرة من ثورة جمال عبد الناصر. وعندما كتب «وابور الطحين» لم تحدث الأثر الذى كان يرجوه. كانت أول تجربة. ولذلك جاءت باهتة، ليصدق عليه المثل العربى «المليح يبطىء» ومعناه أن الحصان الجيد لا يتقدم فى أول الشوط! ولم يراوده اليأس بعد الشحوب الذى لازم تجربته الأولى، فكتب «الناس اللى تحت». وكانت هذه المسرحية هى شهادة ميلاد أب المسرح المصرى الحديث. كان المسرح قبل نعمان عاشور روايات شعرية على طريقة روايات المدارس الثانوية للشاعر عزيز أباظة الذى كان يتولى لمدة طويلة من الزمان وظيفة مدير مديرية أسيوط، وهى وظيفة بوليسية لأن الأمن العام كان أهم المسئوليات المنوطة بالمدير!

وكانت مسرحيات توفيق الحكيم لوناً من الترف الثقافى تصلح للقراءة ولا تصلح للتمثيل. وإلى جانب هذه المسرحيات كانت هناك مسرحيات الريحانى وعلى الكسار. وهى كلها مسرحيات فرنسية ممصرة، ولكنها أبداً لم تتناول مشاكل مصر الحقيقية، ولم تتعرض لهموم المصريين من قريب أو بعيد! لم يكن قبل نعمان عاشور إلا مسرحيات يوسف وهبى، وهى مسرحيات خطابية أغلبها، وإن كان بعضها قد تعرض لمشاكل مصرية حقيقية، غير أن الفنان يوسف وهبى كان من المؤمنين بشعار «خف تعوم» ولذلك لم يحاول الغوص فى الأعماق قط! كانت مسرحية «الناس اللى تحت» هى أول مسرحية مصرية حقيقية تعرض على المسرح المصرى، وكان حوارها الموحى الذكى هو أول حوار ينطق بلسان الناس العاديين، البواب والكمسارى وصاحبة البيت والنصاب ورجائى الثرى الذى تدحرجت به الأحوال إلى السرداب، وأحدثت المسرحية زلزالا فى عموم مصر، وكانت هى السبب المباشر الذى فتح الطريق أمام مواهب كثيرة اقتحمت المسرح المصرى بعد نعمان: ألفريد فرج، وسعد وهبة، ويوسف إدريس، وعلى سالم، ومحمود دياب. ولكن ما كاد نعمان يستقر ويشمر عن ساعده استعداداً للكتابة، حتى حدث ما لخبط كيانه من جديد وأفقده التوازن! لقد اختفى الدكتور عباس عمار وجاء الصاغ كمال الدين حسين إلى الوزارة ومعه طاقم من ضباط المخابرات احتلوا مكتب نعمان عاشور وراحوا يصدرون الأوامر. وكان نعمان مستعداً فى كل لحظة إلى التنازل عن مقعده خلف المكتب لأى واحد من هؤلاء حتى «سيادة الصول» الذى لم يكن يؤدى عملاً معيناً فى الوزارة!

وعندما غاب كمال الدين حسين وانتقل إلى وزارة التربية والتعليم حل محله البكباشى حسين الشافعى. وجاء حسين الشافعى ومن خلفه مجموعة من صغار الضباط الذين خدموا معه فى المعسكرات. واحتل هؤلاء مكاتب وزارة الشئون، وكان مكتب نعمان عاشور فى مقدمة المكاتب التى احتلت، وانزوى نعمان يجلس أحياناً فى مكتبه ولكن فى المكان المخصص لجلوس الضيوف. وعاوده الشعور بالقلق والخوف من المستقبل. وفى تلك الأيام عكف على كتابة «الناس اللى فوق»، وجاءت صورتها فى النهاية مهزوزة كحالة نعمان سواء بسواء! ولكن حظ نعمان الحسن أوقعه فى طريق زميلين من كبار الموظفين، كانا السبب المباشر فى تهدئة روح نعمان القلقة، سعيد قدرى الذى كان مديراً للعلاقات العامة بالوزارة، ومدحت حمدى الذى كان سكرتيراً خاصًا للوزير. وكان سعيد قدرى واحداً من الموظفين الذين اشتركوا فى تأسيس وزارة الشئون الاجتماعية. وكان بفكره ومعتقداته تلميذاً مخلصاً لحزب الفلاح الذى ضم نخبة من المثقفين الذين تناقضوا مع العهد قبل الثورة. وهو الحزب الذى تعاون مع الثورة فى بداية عهدها، ومثله فى الحكم الدكتور أحمد حسين، والدكتور عباس عمار، والدكتور فؤاد جلال. وكان رجال هذا الحزب قد تلقوا تعليمهم فى أمريكا وتأثروا بأسلوب الحياة هناك. وكانوا يحلمون بمجتمع عصرى وسلوك حضارى، ولذلك كانوا يذهبون إلى مكاتبهم بالقميص والبنطلون. وبعضهم كان يرتدى القبعة لحماية رأسه من الشمس الحارقة. وكان سعيد قدرى يتعامل مع موظفيه كأنهم مجموعة من الأصدقاء، وبالطبع وجد سعيد قدرى فى نعمان

عاشور ما هو أكثر من الصديق. فقد كان نعمان هو الفنان الوحيد الذى يعمل بالوزارة. وهو المثقف الوحيد أيضًا الذى يهتم بما هو أوسع من قوانين العمل وخطوات تطبيق الضمان الاجتماعى! وكان مدحت حمدى من جيل نعمان، وكان من أسرة تشبه أسرة نعمان، الفرق الوحيد أن نعمان كان ينحدر من أصول ريفية، بينما مدحت كان من أسرة عاشت فى المدينة وشغل أفرادها المناصب العليا فى الإدارة والشرطة وقيادة الجيش. وبقدر ما كان نعمان قلقا كان مدحت حمدى واثقا من نفسه، وبقدر ما كان نعمان مترددا كان مدحت مقداما. وكان يتعامل مع الوزراء الذين عمل معهم من موقع الند. وكان لا يخفى رأيه فى أحرج المواقف وأشدها حساسية! يردد رأيه فى أسلوب العمل وينتقد ممارسات الثورة أمام ضباطها. وكان لهذه الصحبة أثرها فى نفس نعمان. ولعل هذا الشعور الجديد بالإطمئنان هو الذى أنتج فى النهاية أعظم روائع نعمان عاشور وهى مسرحية «عيلة الدوغرى»! ولقد خسر نعمان عاشور كثيرا حين ترك مجال الوظيفة واتجه إلى غابة الصحافة. خصوصا وأن نعمان ليس صحفيا ولكنه فنان وأديب ومفكر. كما أن أى كاتب صحفى تمرس على هذا العمل واعتاده كان باستطاعته أن يخطف انتباه القراء من نعمان عاشور. ولذلك أصبح نعمان هو القلق بعينه بعد أن كان يعانى القلق فحسب! وضاع نعمان عاشور فى خضم التيارات المتضاربة، ولم يرحمه هؤلاء الذين كانوا يكافحون ضد السلطة ويمنون على الناس كفاحهم ويعيرونهم أحيانا. ولم يرحمه أيضا هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بأن السلطة هى روح الشعب،

وأن الشرف الحقيق يكمن فى الوقوف معها ومطاردة أعدائها. وأخيرا وجد نعمان نفسه فى الشارع مفصولا مع عشرات غيره من الصحفيين، ولم ينقذه من هذه الورطة إلا مصطفى أمين، فقد كان يقدر مواهبه ويعتقد أنه الطبعة العصرية والشعبية من توفيق الحكيم!

واشتغل نعمان عاشور كاتبا فى أخبار اليوم - ولا يزال. وكان هو الوحيد الذى اشتغل بالكتابة من أفراد الدفعة التى فصلت فى عام ١٩٦٥ . ولكنه عاد إلى شرنقته القديمة محتميا بحذره وقلقه وتطيره الشديد. وكتب مسرحيات كثيرة بعضها صادف نجاحا، والبعض الآخر لم يلمع، ولكنه بكل المقاييس والمواصفات عراب المسرح المصرى الحديث، وبالتالى فهو عراب المسرح العربى الحديث كله. وهو رائد النهضة المسرحية الحديثة التى انفجرت كالقنبلة فى الستينات من هذا القرن ولايزال صداها يتردد عبر السنين. و«رجائى بك» فى «الناس اللى تحت»، و«الطواف» و«عيلة الدوغرى» سيخلدان فى تاريخ مسرحنا طالما هناك مسرح ورواد وعاشقون! وليس هناك أحد ممن تبعوه ومضوا على طريقه استطاع أن يناقشه أو يقترب من قمته. ولو كان لنعمان عاشور جسارة يوسف إدريس، وأعصاب سعد وهبة لصار للعرب نجم لامع وعلى قدم المساواة مع إبسن! ولقد استطاع نعمان عاشور بفضل حذره الشديد أن ينجو من المعتقلات والسجون، فى الوقت الذى ضمت فيه هذه السجون كل أدباء مصر تقريبا ما عدا قلةقليلة، إلا أنه استطاع بالرغم من كل شئ أن يكتب مسرحيات لامعة، وتعرض لمشاكل إجتماعية شائكة. ولكن نعمان غاب فى العصر الساداتى فلم يكتب شيئا

ذا قيمة حقيقية. فقد أغلق مسرح الدولة أبوابه في وجهه، وعندما اتجه إلى المسرح الخاص لم يستطع أن يثبت أقدامه عليه، فقد كان الانهيار قد شمل كل شئ في البلاد، وحط الخراب على كل مجالات الفنون وخصوصا مجال المسرح. واكتفى نعمان في النهاية بتدوين مذكراته أو ذكرياته.

ونعمان هو أفقر الأدباء المصريين «الكبار» فكلهم والحمد لله يرفلون في العز وبعضهم يملك الضياع والقصور. ولكن نعمان خرج من الدنيا بفيلا على حافة الصحراء الشرقية في ضاحية المعادى، ويعيش وحيداً تقريباً بعد أن رحلت السيدة زوجته منذ أعوام عن دنيانا. والسبب أن نعمان لم تسمح له ظروف «كتابته» بالاسترزاق الواسع، فهو كتب للمسرح أعظم إنتاجه عندما كانت أعظم مسرحية تباع بخمسمائة جنيه. وكتب بعض إنتاجه للإذاعة عندما كانت المسلسلة الشهرية يدفع عنها ثلثمائة جنيه! وهو اهتم في بداية حياته بكتابة فصول عن تاريخ مصر. وهو لا يخفى إعجابه بالمعلم الأكبر عبد الرحمن الجبرتي الذى كتب تاريخ مصر في يوميات قصيرة أشبه بالمسرحيات. ثم حاول كتابة القصة القصيرة ولكنه لم يوفق فيها، وإن كان من خلالها قد أثبت مقدرته الفذة على رسم الشخصيات. كما أن حوار الشخصيات في قصصه القصيرة كان حوارا مسرحيا بلا شك. ولعل أشهر أصدقائه هو العم «أبو عبامة»، وكان صعيدياً يبيع القازوزة على مقربة من منزل نعمان في صباه. وكان «أبو عبامة» يتمتع بمواصفات جسدية تؤهله لبطولة العالم في الملاكمة، ولكنه كان غبياً إلى حد أنه لم يكن يستطيع

الحصول على قوت يومه إلا بصعوبة. وهذا التناقض الحاد فى شخصية «أبو عبامة»، سيكون هو محور شخصيات نعمان عاشور، كما أن «عبادة» مجنون قهوة عبد الله ألهم نعمان بدون شك أشياء كثيرة. ولكن شخصية نعمان الحذرة المترددة المتوجسة من كل شىء منعته من أن يكون له صلات واسعة بالشارع المصرى كزكريا الحجاوى، كما حالت بينه وبين عقد صلات قوية بالوسط الأدبى كأنور المعداوى، واكتفى كتوفيق الحكيم بالمشاهدة دون المشاركة، وبالمراقبة دون الالتحام. ولكنه على العكس لم يلجأ إلى برجه العاجى قط، ولم يفقد وعيه لحظة، بل كان يتأمل من الشارع نفسه، ويراقب وهو وسط الجماهير، ويحلم وإحدى عينيه مفتوحة والأخرى نصف مغلقة!! ولذلك حمل قضية الجماهير على كتفيه، وحارب فى صفها، ولم يكتب حرفًا واحداً فى حياته ضد مصالحها. وبالرغم مما قدمه نعمان عاشور للمسرح العربى بقدر ما تجاهله نقاد النظريات إياها التى روجت كثيراً لأعمال أقل شأناً من أعمال نعمان عاشور، والتى ذهب بعضها بعيداً فرفع ميخائيل رومان - وهو للعلم كاتب مصرى وليس كاتبًا أجنبيًا - درجات فوق نعمان عاشور، وهو موقف غريب من هذه الأقلام سبق أن وقفت موقفاً مشابهًا له حين توجت «ش» أميراً للرواية العربية، وأغفلت ذكر نجيب محفوظ!! وفى المقابل تخصصت أقلام من نوع آخر فى مهاجمة نعمان عاشور، وطاردته تلك الأقلام العفنة حتى فى الفترات التى اعتكف فيها نعمان، وكف فيها عن الكتابة! ولكن المؤكد أنه سيذكر فى تاريخ مصر الجديد أنها أنجبت نجيب محفوظ فى الرواية ويوسف إدريس فى القصة

القصيرة ونعمان عاشور في المسرح وصلاح عبد الصبور في الشعر. وإذا كان سعد وهبة قد تحول إلى منتج، ويوسف إدريس إلى كاتب مقالات سياسية، ومحمود دياب إلى راهب، وألفريد فرج إلى مهاجر بدون سبب، فإن نعمان عاشور هو الذي بقي في المسرح وحده، يعاني اللهب والوحدة والصراخ، وهو الذي سقطت على رأسه شظايا البيت المسرحي عندما نسفه المتآمرون، ومع ذلك ظل يصرخ بقدر ما أوتي من قوة، غير أن صراخه كان خافتاً، وربما لم يكن مسموعاً وسط ضجيج الانفجارات! وللتاريخ أقول أنه لم يقف مع نعمان ولم يثبت مكانه إلا على سالم، وإن كان هو الآخر قد اضطر إلى الهجرة بعض الوقت، عندما اشتدت الضربات، وتم إحكام الحصار حول أصحاب المواهب.

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً لأمجاد نعمان، فلابد أن نقرر مطمئنين أنه كان صاحب الفضل الأول على بزوغ نجم فرقة المسرح الحر، وهي التي كانت البداية الحقيقية للنهضة المسرحية التي بلغت ذروتها في الخمسينيات والتي أنجبت فرقة الخميسي، وهي الفرقة التي لفتت نظر السلطة إلى خطورة المسرح، فكانت فكرة إنشاء مسارح التليفزيون، التي بدأت بشكل جيد وانتهت بكارثة حقيقية، بسبب تدخل عدم الموهوبين وإشراف الجهلاء من «دكاترة» السلطة!

ولو كان في مصر رغبة حقيقية الآن في إعادة الروح إلى المسرح المصري، فإن مكان نعمان عاشور الطبيعي اليوم هو حجرة المدير في المسرح القومي، أو حجرة رئيس مجلس الإدارة في مؤسسة المسرح.

ولكن عيب الذين يظهرون الرغبة فى تجديد المسرح المصرى، أنهم يريدون التجديد ولكن فى إطار نفس الوجوه التى أغلقت المسرح وشردت أبناءه!

وعلى كل حال، وإذا كانت العبرة بالخواتيم، فإن خاتمة نعمان كانت على خير ما يرام. فهو قد أدى واجبه نحو أمته، وبذل كل ما لديه للمسرح، وإن كانت ظروف استثنائية قد حرمت المسرح من كل ما لديه. وهو أحد أبناء مصر العظام الذين أسهموا بجهد خلاق فى إثراء روح مصر العظيمة. وهو واحد من بناة مصر الحديثة وأثره فيها لا يقل عن أثر مختار فى النحت وحسن فتحى فى العمارة. وهو فى النهاية واحد من شلة ندوة قهوة عبد الله، زميل أنور المعداوى وزكريا الحجاوى والشيخ عبد الحميد قطامش. ولكنه وحده كان له الفضل فى الصعود على خشبة المسرح بالناس العاديين. صعد بهم وبمشاكلهم وبأحلامهم وبآلامهم، ومنحهم الفرصة ليعرضوا مشاكلهم تحت الأضواء وبمصاحبة المؤثرات الصوتية والضوئية، ولعل هذا هو السبب الذى جعله موضع اضطهاد من السادة أصحاب المصلحة فى كل العهود.

طوبى لنعمان عاشور.

□□

زواج الدكتور..!

كان اسمه الشيخ، لم يكن هذا اسمه بالضبط، ولكن كان اسم عائلته، أما اسمه الأول فقد نسيته، وكان لقبه الدكتور فقد كان طبيباً بيطريا، وكان عمله فى معالجة الحيوانات يستغرقه طول العام، ولكنه كان حريصاً على الوجود فى قهوة محمد عبد الله كل مساء. فقد كان على صلة وثيقة بزكريا الحجاوى، وكان زكريا حريصًا على التردد على عيادة الدكتور الشيخ للكشف والعلاج، وكان يفضله على غيره من الأطباء. وكانت فلسفة زكريا الحجاوى تتلخص فى أن الدكتور الشيخ الذى تفوق فى معالجة الحيوانات التى لا تنطق ولا تشكو، قادر أيضاً على علاج الإنسان الذى ينطق ويشكو ويعرف موطن الداء.

وكان الشيخ من أسرة كبيرة اشتهرت بإنجاب عدد من مشاهير الفنانين. وكان الدكتور الشيخ شديد الحرص على اقتناء عدد من أعمال

هؤلاء الفنانين فى منزله، وكان حرصه أشد على الطواف بأصدقائه الذين يترددون على منزله لمشاهدة هذه الأعمال، وكان يسهب فى شرح تفاصيل هذه الأعمال، والمعنى الذى تحمله، والهدف الذى يرمى إليه الفنان. وفى هذه الساعات التى كان يطوف فيها بأصدقائه للفرجة على هذه الأعمال الفنية، كان يثرثر كثيراً، ويخوض فى موضوعات تتعلق بهذه الأعمال، وتتعلق بغيرها أيضًا، وكان يبدو سعيداً ومرحًا ومنطلقًا على سجيته تمامًا فى تلك اللحظات. ولكنه إذا جاء إلى قهوة عبد الله واحتل مكانه المختار، لم يكن يفتح فمه إلا نادراً، وأحياناً يقضى السهرة دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وأحياناً كان زكريا الحجاوى يستفزه ليجبره على الكلام، ولكنه كان يكتفى بابتسامة ويهز رأسه ثم يرفع أصبعه السبابة ويقربها من شفتيه علامة أنه صائم عن الكلام! ولكنه فى بعض الليالى إذا احتدم النقاش وثار الجدل حول الإنسانية وبدايتها وتطورها، كان ينبرى للكلام، ولكنه كان لا ينطق أكثر من عبارة واحدة (هذا الموضوع يحتاج إلى جلسة طويلة، وأنا مستعد لحضور هذه الجلسة والاشتراك فى النقاش) ولكن هذه الجلسة لم تعقد أبداً، ولم يتح لأحد أن يشترك فى نقاش من أى نوع مع الدكتور الشيخ.

ولكن هذا الصامت الزاهد فى الكلام، كان قارئاً ممتازاً، قرأ الأدب اليونانى باللغة اللاتينية التى كان يجيدها، واطلع على حضارة الهند وفارس، وكان واسع الإلمام بتاريخ العرب فى الجاهلية وبعد الإسلام.. وكان يتردد أحيانا على المسرح. وكان لا يفتح الراديو إلا للاستماع إلى نشرة الأخبار، ولكنه كان حريصاً على الاستماع إلى حفلة أم كلثوم أول

كل شهر. وكان يقرأ إنتاج أدباء قهوة محمد عبد الله. فإذا أعجبه شيء منه، اكتفى بإبداء رأيه بكلمة واحدة هي (برافو) وإذا لم يعجبه إنتاج أديب من الأدباء ادعى أنه لم يقرأه لانشغاله في عمله.

كان الدكتور الشيخ أعزب يملك وقته كله، ولم يتردد حوله أي كلام يشير من قريب أو بعيد إلى أنه على علاقة بأحد من الجنس الآخر، بل كانت حياته تمضي على وتيرة واحدة. يعود إلى منزله في منتصف الليل، ويستيقظ مبكراً، ويخرج إلى عمله في وزارة الزراعة، ثم يعود إلى منزله لينام بعض الوقت، ثم يذهب إلى عيادته ويقضي فيها عدة ساعات، ثم يأتي إلى قهوة محمد عبد الله ليسهر فيها حتى منتصف الليل. ولم يشاهد الدكتور الشيخ خارج هذه الدائرة أبداً، ولم يترك القاهرة إلى غيرها من البلاد، بالرغم من حبه للريف، وشغفه بالبحر، وكان يعشق نهر النيل ويعتبره مصدر الحياة في مصر. وكان حريصاً على أن يشرب من مياه النهر مباشرة طوال شهر طوبة. وكان يدعو كل من حوله إلى الشرب من النهر مباشرة خلال هذا الشهر، فقد كانت هذه هي عادة المصريين القدامى في فجر التاريخ.

ولكن الدكتور الشيخ الذي كان أشبه بقطار سكة حديد يسلك طرقًا معروفة وخطوطاً مرسومة، انقلبت حياته رأسًا على عقب. فقد مات أحد أقربائه، وآلت إليه ثروة طائلة. واختفى الدكتور الشيخ من قهوة عبد الله، وبرر البعض سر اختفائه بأنه حزين، وزعم البعض أنه مشغول بإحياء ما آل إليه من أموال طائلة وعقارات كثيرة وأراض

شاسعة. ولكن الدكتور الشيخ ظهر بعد عام وقد تغيرت أحواله، فقد اقتنى سيارة وهجر البيت الذى كان يسكنه على أطراف الصحراء بالقرب من الهرم، واستأجر شقة فاخرة على النيل الذى يعشقه، وفتح أبواب بيته للأصدقاء.

وكانت دائرة أصدقائه قد اتسعت ولم تعد مقصورة على شلة قهوة عبد الله، ودخلت فى دائرة أصدقائه طوائف جديدة: ضباط شرطة كبار، وأطباء مشهورون، وفنانون، ورجال أعمال. وذات مساء دعا أدباء قهوة عبد الله إلى وليمة فى شقته، ولم يكف عن الكلام طوال السهرة، ولم يسمح لأحد حتى ولا لزكريا الحجاوى بأن ينطق حرفاً واحداً خلال السهرة، ولكنه اضطر إلى ذلك حين أعلن للجميع عن رغبته فى هجر العيادة والاستقالة من الوظيفة والتفرغ لمباشرة أعماله التى آلت إليه بالميراث. ولكن زكريا الحجاوى الذى استحسن الفكرة، اقترح عليه أن يؤسس دار للنشر، وراح زكريا يشرح ميزة دار النشر، خصوصا إذا كان صاحبها مثقفا من طراز الدكتور الشيخ، وأضاف زكريا أن لديه كتاباً جديداً بعنوان بجماليون، ووصف الكتاب بأنه إضافة جديدة إلى الأسطورة التى تناولها عدد من مشاهير الأدباء عبر التاريخ. واقترح زكريا عدة كتب لأنور المعداوى، وديوان شعر لمحمود حسن اسماعيل. واقترح أيضاً نشر قصة ألف ليلة وليلة الجديدة لعبد الرحمن الخميسى، وأكد أن بداية من هذا النوع كفيلة بتدعيم دار النشر الجديدة، وإفساح الطريق أمامها للنمو لتصبح دار نشر من نوع جديد، وتكون فى خدمة القراء والأدباء، وخصوصا وأن صاحب الدار غنى بفضل الله، ولا

يحتاج إلى مزيد. وسكت الدكتور الشيخ ولم يعلق على اقتراح زكريا الحجاوى. وانتهت السهرة بدون الوصول إلى حل أو تحديد الطريق الذى سيسلكه الدكتور الشيخ.

ولكن الذى حدث بعد ذلك أن صلة الدكتور انقطعت بشلة قهوة محمد عبد الله، وصرنا نراه أحيانا عندما يمر ليلاً على بقالة مخالى لشراء ما يلزمه للسهرات فى منزله، وفى البداية كان يعرج على القهوة ويصافح أفراد الشلة ثم يعتذر لارتباطه بموعد، ولكنه بعد ذلك كان يكتفى برفع يديه لتحيتنا من بعيد لبعيد.

وانقطعت صلتنا بالدكتور الشيخ بعد ذلك، ولم نعد نسمع عنه إلا قصصا حول سهراته التى يقيمها فى منزله، وعن أصدقائه الذين ازداد عددهم وارتفع قدرهم، فشملت بعض أصحاب النفوذ، وبعض المشاهير من الفنانين، ولكن أغلبها كان من باب الإشاعات، وبعضها كان يتضمن مبالغات شديدة. ولكنا كنا نستمع إليها ونعلق عليها، ثم ننساها بعد ذلك. وذات مساء انتحى بى زكريا الحجاوى ركنا وأسر إلى بأن الدكتور الشيخ يريدنا معا لنسهر فى منزله هذه الليلة. ثم انصرف على أن ألقاه عند كوبرى عباس فى الحادية عشرة مساء. واستقبلنا الدكتور الشيخ بترحاب شديد، وفوجئت بأن منزله كان خاليًا تمامًا إلا منه. وظننت أن السهرة المعتادة لم تبدأ بعد. ولكنه حين جلس أبلغنا أنه قرر الإقلاع نهائياً عن السهر، وهجرة شلة الأصدقاء الذين تعرف عليهم بعد الثراء المفاجىء الذى هبط عليه. وقال وفى صوته رنة أسى (لقد

جربت الحياة وحيداً وفقيراً حتى بلغت الخمسين، ثم جربت الغنى والحياة تحت الأضواء وفى الضجيج وبين الأصدقاء عشر سنوات كاملة، ولكنى سئمت كل شيء الآن، وأريد أن أعيش حياة مختلفة كبقية عباد الله، فأتزوج وأقضى بقية عمرى فى جو عائلى حرمتنى منه ظروف كانت أقوى منى ومن الجميع). وسأله زكريا الحجاوى عن سعيدة الحظ، وهل وفق فى العثور عليها، أم أنه سيبدأ رحلة البحث عنها فى المستقبل القريب. واسترخى الدكتور فى مقعده، وراح يحكى عن السيدة التى تعلق بها قلبه. وهى سيدة فى الثامنة والأربعين من عمرها، ولكنها جميلة بالرغم من أن ابنتها الوحيدة تبلغ التاسعة والعشرين من العمر، وأنه اتفق معها على الزواج والعيش معه فى شقته هى وابنتها. وسألنا رأينا فيما هو مقدم عليه. ولما طال الصمت بيننا، نظر إلى زكريا الحجاوى وقال متوسلاً: (ما رأيك أنت يا أبو الزيك؟ هل أتزوجها؟ أم أتوقف عند هذا الحد، خصوصًا وأن محسوبكم سيدخل غدا عامه الستين). وقال زكريا الحجاوى فى جد شديد، سأسألك عشرة أسئلة، وسيتوقف جوابى على أجوبتك لها. وأنصت الدكتور الشيخ إلى أسئلة زكريا الحجاوى، وراح زكريا الحجاوى يمطره بالأسئلة:

- هل تشك فى إخلاصها لك؟

وكان الجواب. نعم، إننى الآن فى الستين، وهى كما قلت لك فى الثامنة والأربعين، وهى تبدو شابة وجميلة، بينما أبدو أنا عكس ذلك، شيخاً ومحطماً وعلى باب القبر. وقال زكريا:

- هل هناك احتمال أن تدس لك السم فى الطعام؟

وكان الجواب: بالطبع، إذا سنحت فرصة فستفعل ذلك بكل تأكيد.

- إذن هى تطمع فى أموالك؟

- بدون شك.

- هل تتصور أنها قد تلجأ إلى محاولة الحصول على توقيعك على بعض الأوراق لكى تنفرد بالميراث كله بعد وفاتك؟

- بالطبع ستحاول ذلك بلا جدال.

- هل تشعر نحوها بحب؟

- طبعاً.

- وهل تشعر هى نحوك بحب؟

- لا.. بكل تأكيد.

وانقطع النقاش بين زكريا الحجاوى والدكتور الشيخ وساد الصمت طويلاً، وفجأة قطع زكريا الحجاى الصمت وقال للدكتور الشيخ فى كلمات قاطعة: إذن تزوجها على بركة الله. وانقضت السهرة بعد ذلك فى حوار متقطع حول بعض الأمور التافهة الشأن، ثم حان الوقت لنستأذن بالانصراف، فودعنا حتى الشارع وعندما مد يده ليصافح زكريا مودعاً، قال له:

- يعنى دا رأيك الأخير؟

وقال زكريا:

ـ توكل على الله ومبروك مقدماً.

وعندما رحنا نقطع شارع النيل الهادىء الصامت المظلم أنا وزكريا الحجاوى سيراً على الأقدام صرخت فى زكريا الحجاوى.

ـ ما هذا الذى فعلت؟ تنصحه بالزواج من امرأة يشك فى إخلاصها، ويعتقد أنها ستدس له السم فى الطعام، وأنها ستدبر له مكيدة للإستيلاء على ثروته؟

وهز زكريا الحجاوى رأسه وقال فى صوت خفيض:

ـ إنت أصلك غبى..! إنه يريد رأينا فى الزواج من امرأة يؤمن أنها لا تحبه ويعتقد أنها ستقتله، ومع ذلك يسألنا الرأى، لقد قرر الدكتور الشيخ يامحمود أن يتزوج هذه السيدة منذ فترة طويلة، ولم يكن سؤالنا إلا تحصيل حاصل، ولم يكن حواره معنا إلا حواراً مع نفسه، وسيتزوجها الدكتور الشيخ سواء رضينا أو رفضنا، وهو على أية حال سيتزوجها بعد أيام.

وظننت أن زكريا الحجاوى يخرف، وأسفت للدكتور الشيخ الذى تصور أنه سوف ينجو عندما تعلق بزكريا الحجاوى فإذا به يكتشف أنه تعلق بقشة. ولكن وهنا العجب.. تزوج الدكتور الشيخ تلك السيدة بعد أسبوعين من هذا اللقاء وسرعان ما ظهر فى المقهى من جديد بعد شهر واحد من هذا الزواج، ولكنه ظهر متكلما على غير عادته الأولى. وكان

يستخدم يديه أحياناً في النقاش وبدا أنه غير سعيد بالمرة في هذا الزواج!

وذات مساء ظهر في المقهى واصطحب زكريا الحجاوي معه، وعلمنا بعد ذلك أنهما ذهبا إلى المأذون وأنه طلق زوجته، وعاد في المساء التالي ليخبرنا أنه اتفق معها على عدم مقاضاته نظير خمسين ألفا من الجنيهات، ثم أعلن للجميع أنه قرر التفرغ للحياة، وأنه سيقوم بسياحة حول الأرض وسيزور بلاداً كثيرة ومدنا كان يسمع بها، وأنه سيعيش للعيش فقط وليس لأي شيء سواه!

ولكن الدكتور الشيخ لم يبرح مكانه في شقته بالجيزة. فقد مات ذات مساء، ولم يكتشف أحد موته إلا بعد ذلك بثلاثة أيام. وذهبنا خلفه نشيعه.. البائس الذي سلك كل الطرق، ولعب على كل الاحتمالات، ولم يحقق في النهاية إلا الخسارة، وخرج من الحياة وحيداً، وكما بدأ، عاد..!.

□□

مشروعات الأستاذ حريقة

أغرب أدباء قهوة محمد عبد الله كان مهندسا ويشتغل بإطفاء الحرائق، وكانت صلته بالقهوة وبالأدباء بسبب زمالته القديمة لواحد من فرسان القهوة هو زكريا الحجاوى، إذ كانا زميلين فى مدرسة الفنون والصنايع، والتى خرجت جيلا عملاقاً من المهندسين العظام، ولكنها أغلقت فى حقبة الثلاثينات لأسباب سياسية، وخسرت مصر بإغلاقها معهدا فنيا ممتازا ومن أعظم طراز.

كان مهندس الحرائق قد بدأ حياته ضابط مطافئ فى الشرطة، ثم استقال والتحق بالعمل فى إحدى شركات البترول الأجنبية الكبرى العاملة فى مصر، مما أتاح له دخلا محترما جعله يبدو فى شلة الأدباء المعسرين جميعا، أشبه براع للأدباء ومنقذ للأزمات التى تعصف بهذا المحيط الغنى بالفكر الفقير بالمادة!

وكان المهندس يكتب قصصا قصيرة أحيانا يقرأها على الجالسين فى قهوة عبد الله ثم يمزقها وينساها بعد حين. وأحيانا كثيرة كان يثرثر حول أفكار أدبية يريد أن يكتبها ثم ينسى الأمر كله بعد حين! ومرة واحدة دون عدة فصول من رواية شرع فى تأليفها، وكان يقرأها على بعض الأصدقاء، حتى استمع إليها ذات مرة عبد الحميد قطامش، فسخر منه بشدة جعلت المؤلف المهندس يتخلص منها بالتمزيق.

وكان عبد الحميد حمدى ومهنته الهندسية وشهرته «حريقة»، يبدو كمن ضل الطريق فى الحياة، كان يتمنى فى أعماقه لو أنه كان من أصحاب القلم أو من أهل الفن، ولو واجه الجوع والفلس والضياع. وقد سعى فى فترة من فترات حياته إلى تعلم العزف على العود، وأجهد نفسه فى محاولة تلحين بعض الأغانى، وكان يعزفها فى الأمسيات التى يعقدها فى بيته الفخم القابع على ربوة على شاطئ البحر الأحمر فى السويس. ولكن فنه الموسيقى لم يكن أسعد حظا من إنتاجه الأدبى. فكان موضع سخرية الأصدقاء من أهل الفن والأدب، وغالبا ما كان يثور بشدة ويتهم شلة الأصدقاء بالحقد والغيرة والخوف من أن يذيع صيته، وتضرب شهرته شهرة الآخرين. وبالطبع لم يكن موقفه هذا إلا مشجعا لشلة الأصدقاء على التمادى فى السخرية وتشريح أعماله الفنية بقسوة ليس لها مثيل. ولكن عبد الحميد كان يبدو سعيدا بصحبة هؤلاء الأصدقاء، وفخورا أيضا على نحو ما، وإلا لما كان هذا الإصرار من جانبه على توطيد أواصر الصداقة والأخوة، بل كان حرصه أشد على عقد السهرات التى تضم هؤلاء الأصدقاء فى منزله، وكان يبدو كريما

فى تلك السهرات على عكس مسلكه مع نفس الشلة خارج منزله، وكان هذا المسلك من جانب عبد الحميد موضع ثورة شديدة ونقد دائم من جانب الشاعر محمود حسن اسماعيل وقد استطاع المهندس عبد الحميد حمدى أن يدخل تاريخ الأدب رغم أنفه، فقد كتب عنه الفنان زكريّا الحجاوى فصلا شيقا فى كتابه الكوتشينة، وداعبه الشاعر محمود حسن اسماعيل بقصيدة صغيرة، وأطلق عليه عبد الحميد قطامش لقب الأبتر، باعتباره أن ذيوله الأدبية كالقصائد والقصص والروايات التى يكتبها ثم ينساها بعد حين، باعتبارها ذيولا مقطوعة ومبتورة وصاحبها بلا ذنب، فهو الأبتر. وكان عبد الحميد يضحك كثيرا على هذه التسمية ويعلق عليها بأنها شهادة بفضله على الآخرين، لأنه بلا ذيل بينما الآخرون بذيول!

وبالرغم من مهنة عبد الحميد حمدى وخطورتها أيضا، إلا أنه كأن يتحين الفرص للهروب من جحيم مهنته إلى قعدات الأدباء والفنانين، وكأنه يريد أن يعيش بخياله فى عالم لم يستطع أن يحيا فيه على قدميه. وأحيانا كان يعانى بشدة من هذه الصحبة، ولكنه كان على استعداد لتحمل كل شئ وأى شئ فى سبيل أن تزدهر هذه الصحبة وتمتد.

ذات مرة أقنعه زكريا الحجاوى بتوصيله لمكان قريب جدا من القاهرة، إذ كان المهندس عبد الحميد يمتلك سيارة فرنسية الصنع فى الوقت الذى كانت فيه السيارات الخاصة نوعا من الترف المبالغ فيه،

ولما كان المهندس عبد الحميد حمدى لابد أن يعود إلى السويس ليستكمل عملا هاما بدأه ولابد من استكماله فى الصباح التالى، فإذا علمنا أن عمله كان يتعلق بإطفاء الحرائق فى شركة تعمل فى حقول البترول، لأدركنا مدى الأهمية التى توجب وجود المهندس فى مكان عمله فى الوقت المحدد. ولكن من قال إن زكريا الحجاوى الفنان حريص على إطفاء الحرائق حتى ولو كانت فى شركات البترول! إنه ذاهب إلى موعد هايف للغاية، فهو على موعد مع فنانة الشعب خضرة وفنان الشعب أبودراع، وهو ذاهب للاستماع إلى ملاعيب شيحا من خضرة والموال الأحمر من أبو دراع، وليذهب المهندس والمواعيد والبترول والحريق، بعد ذلك إلى الجحيم ولا مانع من أن يذهب معهم زكريا الحجاوى، شرط أن يذهب إلى السهرة وبعد أن يستمع إلى مايريد.

انطلق الرجل الطيب بالسيارة وبجانبه زكريا الحجاوى فى الطريق إلى قليوب، وهى ضاحية قريبة جدا من القاهرة وقد تصور المهندس عبد الحميد أنها وجهة زكريا الحجاوى، ولكن زكريا الأديب راح يحكى قصصا من جعبته المليئة بالقصص، وكان يعلم عشق عبد الحميد لمثل هذه القصص وشغفه الشديد للاستماع إليه، وظل الرجل يسوق على طرق ممهدة وعلى طرق لم تمهد بعد حتى أشار إليه زكريا الحجاوى بالتوقف عند قرية على بعد مئتى كيلو متر من القاهرة وتدعى مطوبس، وهى قرية مصرية ترقد على ربوة عالية، وتطل على فرع رشيد، وتشرف على قناطر أنشأها محمد على فى زمن سابق ولكنها تضفى على القرية مسحة جمال ليس لها مثيل. ورغم أن المهندس

عبدالحميد ثار على زكريا الحجاوى وصرخ فيه، إلا أنه جلس يستمع حتى الصباح مع زكريا الحجاوى، وعاد معه أيضا، وقرر أن لايخالط زكريا الحجاوى أو يتحدث معه أو يصافحه، وأن يبتعد عن طريقه وإلى آخر العمر. وهمس الصديق عبد الحميد قطامش فى أذنى بضرورة التدخل لإصلاح ذات البين، ولكنى لم أبد اهتماما بما همس به قطامش، بل إننى لم أبد أى اهتمام لمحاولات الأصدقاء الآخرين لجمع شمل زكريا وعبد الحميد، والسبب أننى كنت أعرف ما الذى سوف يحدث بينهما مستقبلا.

ولقد حدث ماتوقعته بالضبط، ذات مساء دخلت المقهى وإذا بزكريا الحجاوى مستلق على ظهره يضحك من الأعماق ضحكة صافية، بينما عبد الحميد حمدى يضحك هو الآخر وقد تقوس ووضع يديه على معدته حتى لاتنفجر من شدة الضحك. روى لى زكريا الحجاوى كيف اجتمعا ولماذا استغرقتهما نوبة الضحك، فقد ذهب زكريا إلى المقهى فلم يجد أحدا فى الركن الذى اعتادت شلة الأدباء الجلوس فيه، ولكنه لمح عبد الحميد يجلس وحيدا داخل المقهى كأنه لايريد أن يرى أحدا من أفراد الشلة، وأشار زكريا الحجاوى إلى واحد من باعة الفاكهة الذين كانوا يفرشون الأرض أمام المقهى، وكان زكريا موضع احترامهم جميعا وحبهم أيضا. وأمر زكريا البائع بالذهاب إلى الأفندى الجالس فى الداخل، وأشار نحو عبد الحميد، وقال للبائع روح للسواق وقول له كلم البيه بره عاوزك!

وذهب الرجل بسلامة نية إلى عبد الحميد وأمره بأن يسرع للقاء البيه ولكن عبد الحميد شخط فى بائع الفاكهة وأمره بالانصراف، ولكن الرجل الذى كان يحب زكريا الحجاوى ويطيعه، ومستعدا لتنفيذ أوامره ولو أدى به الأمر إلى الليمان، أمسك بعبد الحميد من رقبته ليجره إلى حيث يجلس البيه، وغضب عبد الحميد غضبا شديدا، وصفع البائع على وجهه، فما كان من البائع إلا أن صفع عبد الحميد باعتباره سائق سيارة البيه، وأسرع زكريا الحجاوى إلى التدخل عندما تطورت الأمور إلى هذا الحد، ولكن بائع الفاكهة الذى كان قد جن جنونه قرر أن يواصل المعركة إلى النهاية، ولم يجد زكريا بدا من صفعه لكى يتوقف، إلا أن البائع أنشب أظفاره فى رقبة زكريا الحجاوى ولم يخلص زكريا منه إلا رجال الشرطة، وعندما انتهت المعركة جلس زكريا وعبد الحميد يضحكان من الأعماق.

والأغرب أنه فى نهاية تلك السهرة، سافرت مع زكريا الحجاوى فى سيارة عبد الحميد إلى مولد السيد البدوى فى طنطا، وسهرنا هناك حتى الصباح، والأغرب أن عبد الحميد بعد أن عاد بنا فى الصباح إلى القاهرة، وجه إلينا لوما شديدا لأننا صرفناه عن عمله الهام، وأقسم ألا يرانا مرة أخرى. وقد بر بقسمه، فلم يزرنا مرة أخرى خلال ذاك النهار، ولكنه عاد فى اليوم التالى وسهر معنا حتى مطلع الفجر.

ولقد ظل عبد الحميد على إتصال بالجميع حتى واراهم التراب، وذهب خلف زكريا الحجاوى، وسار خلف قطامش، وبكى فى جنازة

محمود حسن اسماعيل، واشترك فى حمل نعش أنور المعداوى، وظل وفيا لهم ولذكراهم، يحتفظ بقصاصات ورق كتبها زكريا الحجاوى، وشرائط تسجيل لسهرات فى بيته ضمت قطامش وآخرين.

وبالرغم من السنين الطويلة التى عاشها عبد الحميد فى صحبة الأدباء والفنانين إلاّ أنه لم يترك مهنته قط، ولم يقصر فى أداء عمله أبداً، وصار فى النهاية واحدا من أكبر خبراء إطفاء حرائق البترول فى مصر. وطار مرة إلى العراق ليشرف على إطفاء حريق شب فى أحد آبار البترول هناك، كما سافر إلى بلاد عربية أخرى أيضا لنفس الغرض. ولكن قلبه الذى يعشق الفن، اتسع لحب مهنته إلى درجة التفانى، وكان اسم جريقة الذى أطلقته عليه شلة الأدباء هو التعبير الحقيقى عن واقع يعيشه عبد الحميد، كان حديثه دائما عن الحرائق وكيفية إطفائها. وعن الأمن الصناعى وفروعه وأساليبه وطرقه المتشعبة. كان حريصا على أن يحمل معه دبوس إبرة فى أى مكان يذهب إليه، وكان يستخدمه عند التدخين، كان يخرم به السيجارة فى أسفلها، وكان هذا الخرم يتيح للدخان أن يتسرب أثناء التدخين، وكان يؤكد أن النيكوتين والقطران يتسربان من هذا الخرم ويبقى الدخان الذى لايؤذى الصدور. وكان يطلق شاربه بطريقة معينة ومضحكة، ولكنه كان يؤكد على أن الأسلوب الذى أطلق به شاربه هو الطريقة العملية التى تحمى أنفه ورئتيه من غبار الطريق.

وكان شديد الحرص على التفتيش بنفسه يوميا ليتأكد من أن الأمن الصناعى مطبق بحذافيره فى كل قسم من أقسام الشركة، وكان يبدو

فى أحسن حالاته عندما يخطر بنشوب حريق فى أحد آبار البترول، وكان يبدو فى زيه الغريب كأنه روميل على خط النار. ولكن قلبه تحطم ذات صباح عندما تحطمت منشآت الشركة ولم يستطع أن يقدم لها يد المساعدة، لأن التدمير لم يكن بفعل النار التى تشب فى مثل تلك المواقع، كان التدمير بفعل مدافع اسرائيل وصواريخها، وقد أرادوا الانتقام بعد إغراق المدمرة إيلات، فصوبوا مدافعهم وصواريخهم على منشآت شركة تكرير البترول بالسويس وظلوا يقذفونها لمدة ثلاثة أيام كاملة حتى أصبحت المنشآت أثرا بعد عين.

والغريب أن عبد الحميد بدا بعد هذه الكارثة كأنه جزء من منشآت الشركة، فقد انهار تماما كأنه أحد الجدران التى انهارت من العدوان، وصار أكثر شرودا وأقل ثرثرة عما كان، لقد عاشت الشركة زمنا طويلا تحت حمايته، كان يطفئ الحرائق التى تشب، وكان يمنع الحرائق قبل أن تنشب، ولكن جاءت لحظة حرجة وقاتلة، احترقت الشركة كلها أمام عينيه ولم يستطع أن يفعل شيئا، وماذا كان فى وسعه أن يفعل والقذائف تنهال على الشركة كأنها مطر ينهال من السماء، ومع ذلك حاول عبد الحميد فى البداية وقد كانت النية صادقة والإمكانيات متوافرة، ولكن القذائف التى كانت تنهال عليهم بمعدل عشر قذائف كل دقيقة لم تترك فرصة لأحد لأن يفعل شيئا، والتهمت النيران الشركة حتى الأرض.

وعاش عبد الحميد بعد ذلك وقد انطفأت اللمعة التى كانت فى العيون، والجذوة التى كانت فى الروح، والرعشة التى كانت فى القلب

كأنما انتهت الحياة، عندما أتت النيران على كل شيء فى معمل تكرير البترول فى السويس. ولقد اعتزل عبد الحميد العمل، وصار مستشارا فنيا لشركات البترول، ولكنه يحن دائما إلى السويس حيث العمل الذى وهبه روحه، والجيزة حيث الشلة التى أعطاها حياته، وربما المحنة التى عاشها أيام حرب الأيام الستة، وبعد ذلك فى حرب الاستنزاف هى التى أرغمته على اللحاق بموكب المؤلفين، فقد صار مؤلفا رغم أنفه، فقد عكف على تأليف كتاب عن الحريق فى الأعماق، وهو عن حرائق آبار البترول: أسبابها وطرق مكافحتها، من خلال الخبرة والتجربة والسنين الطويلة. وبالرغم من ذلك مازال المهندس عبد الحميد الذى شارف السبعين يعزف على العود، ويحاول كتابة قصص قصيرة وأحيانا روايات يمزقها بعد ذلك وينساها بعد حين.

□□

أدباء ضاعوا فى الزحام

لماذا يوقد الحظ الشموع لأديب ويطفئها حول أديب آخر؟

لاجواب! فمصائر بنى آدم تتحكم فيها ظروف وملابسات وأسباب، ولا أحد يستطيع أن يحدد السبب أو يكشف السر، ولذلك تبقى كل الأسئلة فى هذا المجال بلا أجوبة. وتكون النتيجة: أديب يشتهر، وأديب يختفى، وربما كانت موهبة الاثنين من نفس القماش، وقدرتهما على نفس المستوى!

وهذا القانون طبقته الحياة أيضا على أدباء قهوة محمد عبدالله. البعض لمع والبعض انطفأ، والبعض ذاع وشاع أمره بين الناس، والبعض ضاع فى الزحام!

وبين أدباء قهوة عبد الله أربعة من أبرز هذا النوع من الأدباء الذين وقف الحظ فى مسيرتهم، وحال بينهم وبين الظهور والاستمرار. والأربعة هم، أنور فتح الله وكمال منصور وهاشم السمان ومحمد إبراهيم. ولقد امتاز الأربعة بالطيبة وعدم الرغبة فى الصراع.

كان أنور فتح الله من نفس جيل زكريا الحجاوى وأنور المعداوى ومحمود حسن إسماعيل، وكان يكتب مقالات فى النقد. وقد قرأت له أول مرة فى مجلة «الميزان» التى أصدرها زكريا الحجاوى فى الأربعينات، ولم تصادف رواجا، واضطرت للاحتجاب بعد حين. ثم أهمل الأدب تماما وانشغل بالحصول على ليسانس الحقوق بعد أعوام طويلة انقطع فيها عن الدراسة، وقنع بالعمل موظفا حكوميا بشهادة البكالوريا. واختفى من قهوة محمد عبد الله ولم يعد يظهر فيها إلا مساء الخميس، وكان يسهر ليلتها إلى ساعة متأخرة، ثم يعود إلى الاختفاء بقية أيام الأسبوع.

ولم أره فى حياتى متحمسا لشىء قدر حماسه للحصول على ليسانس الحقوق. كان يرى أن الحياة غابة. وأن السلاح الوحيد الفعال هو الشهادة، خصوصا فى بلد (بتاع شهادات). وعاد أنور فتح الله إلى قهوة عبد الله وفى جيبه السلاح الوحيد الفعال فى غابة البلد (بتاع الشهادات)، وبدا سعيدا، فقد حصل على بوليصة التأمين ضد كل المخاطر والأهوال! ولكن حنينه للأدب دفع به إلى الاشتراك فى تحرير بعض المجلات الأدبية قليلة الانتشار والتأثير، ولكنه كان يبذل جهدا لابأس به فى كتابة بحوث أدبية وآراء نقدية ومحاورات مع بعض النقاد والأدباء. وفى أواخر الخمسينات اتجه إلى المسرح يقتبس روايات من الأدب الفرنسي ويمصرها، حتى جاءت الستينات وأصبح واحدا من أبرز مؤلفى مسارح التليفزيون، واستحدث بالاشتراك مع السيدة أمينة الصاوى لونا جديدا فى المسرح، بإعداد مسرحيات مأخوذة من روايات

مصرية لأشهر الكتاب، وعلى الأخص روايات نجيب محفوظ. وكان يبدو شديد النشاط فى تلك الأيام وسعيدا على نحو ما، وفخورا بما يقدمه للمسرح من أعماله. وفجأة وبلا أسباب، وربما لأسباب لا ندريها، خفت صوته، وشحب نوره، وانسحب إلى الظل وإلى الظلام. ومنذ أكثر من خمسة عشر عاما لم أسمع بأنور فتح الله ولم أسمع عنه شيئا، ولا أدرى إذا كان حيا يرزق، ولا أعلم إذا كان مقيما فى مصر أو رحل عنها إلى غيرها من البلاد!

ويبقى السؤال، لماذا سكت أنور فتح الله؟ ولماذا ابتعد عن النور وآثر الظلام؟ وكيف انتهت الحياة بهذا الرجل؟ الذى كان ضخم الجثة، كبير القلب، المتفائل دائما، الهادئ الأعصاب فى كل الأوقات. لا أعتقد أننى أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة، ولا أعتقد أن أحدا آخر يستطيع الإجابة! ولكن النتيجة أن أنور فتح الله كف عن مواصلة الفن الذى أحبه، وعف عن الشهرة، ولزم مكانه فى الظل، لعله عثر هناك على السعادة التى كان يبحث عنها بعيدا عن صخب الشهرة وزحام الأضواء!

وكان **كمال منصور** زميلا لأنور المعداوى فى كلية الآداب، واشتغلا معا بالتدريس، وكان أيضا من رواد قهوة محمد عبد الله. وكان شاعرا رقيقا، وحالما، وكان شعره قريبا من شعر صالح جودت. ولذلك استخدمته إحدى المجلات الأدبية الشهيرة ليكتب لها أربعة أبيات من الشعر كل عدد كتعليق على صورة من رسوم واحد من الفنانين العظام. ولكن كمال منصور تخلص من هذه المهمة واتجه إلى الأغانى، وكتب

منهـا عـددا لابأس به تغنى بهـا بعض المشـاهيـر من المطربات والمطربين، ولحنها كبار الملحنين. ولكن فجأة اختفى كمال منصور من قهوة محمد عبد الله، وانسحب من الوسط الفنى، وكان قد انسحب من الوسط الأدبى قبل ذلك، وتفرغ للوظيفة، والأكيد أنه حقق فيها نجاحا كبيرا، لأنه وصل فيها إلى آخر السلم، وحصل على درجة وكيل وزارة للتربية والتعليم.

والأكيد أيضا أن اختفاء كمال منصور يختلف فى أسبابه عن اختفاء أنور فتح الله، وأغلب الظن أن كمال منصور الذى كان زميلا لأنور المعداوى ومعجبا به على نحو ما، قد تأثر لنهاية أنور المعداوى المأساوية.. ومصيره الذى كان غاية فى الظلم الصارخ والألم الشديد عندما طرد أنور المعداوى من إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم وأطيح به من مكتبه العالى إلى وظيفة مدرس فى مدرسة السلحدار الابتدائية، ثم ثورة أنور المعداوى على هذا الوضع بعد ذلك، واستقالته من العمل الحكومى، وبقاؤه فترة طويلة بلا عمل وبلا مرتب، ثم مرضه الشديد بعد ذلك ووفاته آخر الأمر.

ربما كان هذا الحادث المؤسف هو سبب قرف كمال منصور، وابتعاده عن الأضواء وأيا كانت الأسباب، فقد خسرنا شاعرا رومانسيا رقيقا ينتمى إلى نفس مدرسة على محمود طه وصالح جودت وكامل الشناوى وأحمد فتحى، مع اختلاف درجات الموهبة والاستعداد.

أما ثالث الفرسان فكان هاشم السمان. وكان موظفا فى مصلحة

الاستعلامات، ويمارس فى أوقات فراغة هواية نظم الزجل بالعامية المصرية. وكان زجله من النوع الطيب مثل صاحبه. وينبئ عن نفسية إصلاحية ترى أن الحياة يمكن أن تمتلئ بالخير، لو انصلحت أحوال الناس واعتنوا بترقية أخلاقهم، وحافظوا على العمل الطيب وسلوك الطريق المستقيم.

وكان هاشم السمان الزجال يرى أن الشر ينبع من نفس الإنسان وليس لظروف حوله، وأن الجوع والمرض والفقر هى نتيجة إهمال الناس وعدم إيمانهم. ولذلك كانت أزجاله كلها تلف وتدور حول فوائد الزواج المبكر، وضرورة التردد على المساجد، وهجر أماكن الفساد، والابتعاد عن صحبة السوء، والحذر من الحاسدين واللئام. وكان يرى الحياة وردية، لولا الفاسدين من الناس، وأن الظروف كلها متاحة، والأمور كلها سهلة، لولا الأحقاد والبغضاء! وكانت أزجاله تقابل أحيانا بثورة عارمة من جانب الشباب المثقف الذين يترددون على قهوة عبدالله، ولكنه لم يكن يقيم وزنا لمثل هذه الأصوات. وكان يعتقد فى نفس الوقت أنه لو أتيحت له فرصة ليذيع أزجاله على الناس من خلال جهاز الإذاعة، فمن المؤكد أن الأحوال كلها ستنصلح.. أحوال البلاد والعباد!

ولكن هاشم السمان الذى كان مؤمنا إلى أقصى حد بأزجاله وأفكاره، اختفى فجأة، وانسحب إلى الظل وإلى الظلام. لماذا؟ لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال، ولا أعتقد أن هناك شخصا يستطيع الإجابة. ولكن، النتيجة أننا خسرنا زجالا إصلاحيا طيبا، بينما اشتهر غيره من الزجالين الذين كانت لهم نفس موهبته، وربما نفس وجهة نظره فى الحياة!

أما رابع الفرسان فهو **محمد إبراهيم**، الذى كان واحدا من أبناء الصعيد الجوانى، وقد شده بلدياته الصحفى الكبير محمد على غريب إلى الصحافة والكتابة. وصار محمد إبراهيم بعد فترة، واحدا من نجوم المجالس الأدبية فى مصر فقد كان خفيف الدم، وكانت لهجته الصعيدية التى حرص عليها تضفى عليه مسحة من الغرابة والقبول!

واشتهر محمد إبراهيم عندما كتب عن نوادر الأدباء القدامى ومساجلاتهم الظريفة، ومعاملة السلاطين والولاة للشعراء والأدباء فى سالف الزمان. وكان يرى الجانب الظريف فى الحياة، ويؤمن بأن مهمة الأديب هى تجميل الحياة، ومدح السلطان العادل، وتقديم الحكمة والمثل العليا لعامة الناس. ولكنه رغم ظرفه ونجاح إنتاجه الذى كان يكتبه وينشره على الناس، لم يقدم على ترك وظيفته، ورفض بإصرار احتراف الأدب أو الاشتغال بالصحافة، بالرغم من كونه عضوا فى جدول المشتغلين بنقابة الصحفيين. ولكنه حافظ على صلاته الواهية بالصحف، وتمسك بتردده على مجالس الأدب، وظل على عهده حتى وقعت الضربة الكبرى التى أطاحت بمئات من المثقفين والصحفيين والفنانين وجرجرتهم إلى المنافى والسجون بعد أن احتدم الخلاف بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم فى بغداد. وإذا كان هؤلاء المثقفون والكتاب والصحفيون قد اختفوا خلف الأسوار لمدة تتفاوت بين عامين وخمسة أعوام، فقد اختفى محمد إبراهيم نهائيا، ليس لأنه كان ضمن المسجونين والمعتقلين، ولكن لأنه آثر الانسحاب إلى الوظيفة، وكف نهائيا عن النشر، وانقطع تماما عن المجالس الأدبية، ووصل إلى درجة

وكيل الوزارة، ثم إلى المعاش. لماذا اختفى محمد إبراهيم الظريف الممتلئ حيوية، الرقيق الحجم والملامح؟ كلها أسئلة لن تجد لها أجوبة، لا عندى ولا عند الآخرين! وكانت النتيجة أننا خسرنا أديبا ظريفا ومحدثا لبقا ودارسا للأدب العربى القديم. وكان يمكنه مع ضربة حظ، أن يصبح مثل الشيخ عبد العزيز البشرى، أو يحل محل الشيخ أحمد العسكرى على الأقل.

ويبقى بعد ذلك سؤال هام، تطرحه هذه النهايات التى انتهى إليها كل من أنور فتح الله وكمال منصور وهاشم السمان ومحمد إبراهيم، لماذا تجف بعض الأعواد الخضراء، وتموت قبل الأوان؟ ولماذا يشحب ضوء بعض المصابيح، مع أن الزيت موجود فيها والفتيلة لاتزال رافعة رأسها وإن كانت بلا ضوء! إنها مسألة عجيبة وتحتاج إلى دراسة، ليس لهؤلاء الأدباء، ولكن للمجتمع الذى عاشوا فيه وللظروف التى أحاطت بهم، وهى دراسة طويلة وتحتاج إلى جهد شديد، ولكننا فى أشد الحاجة إليها، ومهما كلفتنا من وقت وجهد ومال، إلا أن مضمونها سيكون مجزيا إذا استطعنا أن نحافظ على تلك العيدان الرقيقة التى انسحقت بلا هوادة تحت أقدام الزمان.. وهى نهاية غير عادلة لهؤلاء الذين كانت لديهم الموهبة والاستعداد والرغبة الشديدة فى الإبداع، ولكن خارت قواهم فجأة فتخلفوا على الطريق، مع أنهم كانوا أصحاب مواهب حقيقية، وربما تقدمتهم مواهب مزيفة، ونفوس شريرة لاتعرف الخجل وتجيد لعبة النفاق والخنوع ومسح الجوخ، ولكن.. هكذا الحياة!!

* * *

دخل الأستاذ «ع» قهوة عبد الله وخرج منها دون أن يترك أثرا لا بالسلب ولا بالإيجاب. كان أنيقا وسط شلة الأدباء، يرتدى «بدلا» من الصوف الإنجليزى غالية الثمن، وينتقى أربطة العنق الثمينة، وحذاؤه الإنجليزى الصنع كان يلمع دائما. وكان سمينا تطفح الحمرة من وجنتيه، ومنظره عموما كان يدل على البيئة التى عاشها فى طفولته، فهو ابن أسرة مستوردة من أسر الريف. ولابد أنه كان ينحدر من صلب جراكسة أو صقالبة أو أروام، والذين حكموا مصر دهراً طويلا فى العصور الوسيطة، وكان الأستاذ «ع» نتاج اختلاط هذه الطبقة بالفلاحين المصريين عندما اضطروا إلى ذلك بعد تدحرجهم من قمة الهرم الاجتماعى بفعل غزاة آخرين. ولم يكن الأستاذ «ع» علما على شيء أو نابها فى شيء. ولكنه كان يلم بأشياء كثيرة، وكان يشترك فى النقاش الذى يحتدم أحيانا بين شلة الأدباء، ولكنه كان يشترك بالإيماءة وهزة الرأس وأحيانا بكلمات قليلة وعبارات قصيرة كان يتقن نطقها.. فى الواقع أنا مش موافق.. أو.. لعل وعسى.. أو.. يعنى.. المسألة مش كده بالضبط.. لكن..! ولم تكن هذه العبارات التلغرافية الشفرية تنبئ عن الرأى الذى يتبناه أو الجانب الذى يؤيده. ولكنها كانت كافية لكى يثبت الأستاذ «ع» وجوده بين شلة الأدباء، وأيضا كانت كفيلة بإدخال السرور إلى قلبه وإحساسه بأنه أدى ما عليه. وأحيانا كان يبدو شديد السعادة عندما يخلو ركن الأدباء إلا من بعض الشبان الذين يترددون أحيانا على المقهى، عندئذ كان الأستاذ «ع» ينتفش ويبدو كأنه شخص آخر.

وكان يعيد على أسماع هؤلاء الشبان المناقشات التى دارت ويشرح لهم رأيه فيما دار، وكيف أنه أفحم الجميع بطرحه الذى أسكت الجميع. ويظل يردد بشكل منتظم وبطريقة آلية السؤال الذى ألقاه وسط شلة الأدباء كالقنبلة، فنسف الجميع ولم يجرؤ أحد منهم على أن يرد على السؤال. فى تلك اللحظة كان الأستاذ «ع» يجلس منتفخا على الكرسى يشفط من سيجارته أنفاسا متلاحقة، وقد وضع ساقا على ساق، عارضا على أنظار الأدباء الشبان الفقراء حذاءه الإنجليزى اللامع.. ماهو أنا حطيت المسألة على بلاطة.. السؤال بتاعى كان بسيطا للغاية.. هو الهدف إيه؟ وبمعنى أصح هى العبارة إيه؟..

وأحيانا.. وفى الليالى التى كان يغادر فيها أنور المعداوى القهوة مبكرا، يجلس الأستاذ «ع» فى الصدارة مستعينا بالشاى الذى «يرشه» على شباب الأدباء فى عقد ندوة ملاكى يتحدث فيها عن آرائه فى الحياة والناس. حدث فى العام ١٩٥٥ عندما عرض نعمان عاشور روايته «المغماطيس» أن أدار أنور المعداوى مناقشة مفتوحة حول المسرحية اشترك فيها الدكتور القط وزكريا الحجاوى ويوسف الحطاب.. وفجأة سأل أنور المعداوى الأستاذ «ع» عن رأيه فى المسرحية فأجاب فى اختصار شديد.. «ماهو يعنى نعمان عاشور هو كده»! ولم يفهم أحد من الجالسين.. هو كده إيه؟ كما أن الأستاذ «ع» لم يهتم بأن يشرح ذلك. وبعد تلك المناقشة بأيام، اقترب منى الأستاذ «ع» وهمس فى أذنى بأنه يريد مشاهدة مسرحية نعمان عاشور وطلب منى أن أدبر له تذكرة من صديقى صلاح منصور. واكتشفت أنه لم يشاهد المسرحية، وإن

كان أبدى فيها رأيا لاينفع ولا يضر! ولقد ظل الأستاذ «ع» حريصا على حضور ندوة قهوة عبد الله حتى انهدت من أساسها، كما ظل مواظبا على الحضور فى مواعيد مبكرة والانصراف فى وقت متأخر والاشتراك فى المناقشات بطريقته وبأسلوبه التلغرافى الغامض! ولكن أغرب مافى قصة الأستاذ «ع» أننى لم ألتق به قط بعد زوال قهوة عبدالله. كأنما انشقت الأرض وابتلعت الأستاذ «ع» صحيح أن العلاقات بين أدباء الندوة اختلفت بعد زوال القهوة عنها قبلها. هناك علاقات استمرت كالعلاقة بين الثالوث الشهير: القط ـ المعداوى ـ شعبان، وعلاقات تقطعت بعض خيوطها وإن بقيت بعض خطوطها مشدودة، كالعلاقة بين عبد الحميد قطامش وزكريا الحجاوى من جهة وشلة الندوة من جهة أخرى. وبعض أدباء القهوة يترددون فى زيارات متباعدة وخاطفة على زملاء الندوة، ولكن الأستاذ «ع» هو الوحيد الذى اختفى تماما وغاب فى زحام البشر. أين؟ لاأدرى ولا أعتقد أن أحدا غيرى يدرى أين ذهب الأستاذ «ع» بعد أن انفض مجلس قهوة محمد عبد الله! ولكن زكريا الحجاوى قال بأنه عاد إلى قريته ليتولى منصب العمدة خلفا لقريبه العمدة الذى مات. وأعتقد أن الخبر الذى أذاعه زكريا كان تشنيعة أكثر منه خبراً، وأن تشنيعةزكريا كانت تحمل رأيه فى أكثر المناصب لياقة لمواهب واستعداد الأستاذ «ع».

الفارس الآخر الذى اختفى فجأة من قهوة عبد الله كان الأستاذ «د». والأستاذ «د» كان ضابطا فى الجيش، ولكنه حوكم أمام محكمة عسكرية خلال حرب فلسطين وطرد من صفوف الجيش لأسباب ليس هنا مجال

ذكرها. واضطر الأستاذ «د» إلى افتتاح دكان لكي وغسيل الملابس في حي العجوزة، وانتسب في الوقت نفسه لكلية الآداب وراح يشق طريقه بالرغم من الظروف التعيسة حتى حصل على ليسانس الآداب، وهنا ترك دكان الغسيل وعاد ليمارس حياته الجديدة كأديب، واتخذ من قهوة عبد الله مكاناً مختاراً ومحطة انتظار لاصطياد فرصة لابد أن تسنح مهما طال الزمان! ولكن الفرصة لم تتح قط. وكانت غلطة الأستاذ «د» الكبرى أنه تصور أن الأدب شهادة تعطى للإنسان من كلية الآداب. وكان يرى أنه أحق الناس بالشهرة والذيوع لأنه فوق كونه يحمل شهادة ليسانس الآداب، فهو أيضاً من أقرباء واحد من أشهر وأعظم أدباء مصر كلها في ذلك الحين. ولقد تصور الأستاذ «د» أن قرابته لهذا الأديب الكبير تمنحه الحق في أن يصبح أديباً، غير أنه اكتشف بالتجربة أن الأسلحة التي يحملها كانت أسلحة فاسدة. ففي مجال الإبداع الأدبي والفني لا الشهادة تجدي، ولا صلة القرابة بأديب عظيم تفيد. ولذلك تذوق مرارة الفشل في كل التجارب التي خاضها، كتب قصصاً قصيرة لم يقبل أحد نشرها على الإطلاق، وكتب شعراً فشل حتى في إقناع الأصدقاء بالإنصات إليه. ثم راح يشيع أنه يكتب رواية، ولكنه لم يبدأ في كتابة سطر واحد من هذه الرواية حتى مات. ولكنه فجأة اكتشف أن أحد أبناء دفعته في الكلية الحربية قد صار مسئولا كبيراً. ولما كان هذا المسئول يشتغل أيضاً بالصحافة، فقد أسندت إليه القيادة العامة مهمة الإشراف على إحدى المجلات الأسبوعية. ولذلك أسرع الأستاذ «د» إلى صديقه الذي كان عند حسن الظن به، فعينه محرراً بالمجلة التي

يشرف عليها، وأشاع الأستاذ «د» أنه قد عهد إليه بالإشراف على المجلة وأنه المسئول الوحيد عن توجيهها ورسم سياستها، وراح يشكو لكل معارفه من جسامة المسئولية وإرهاق العمل. واختفى الأستاذ «د» من قهوة محمد عبد الله، ولكنه كان لا يكف عن تكرار شكواه كلما التقى بزميلٍ من زملاء الندوة فى الطريق العام. ولكن كل شيء انكشف فجأة عندما حضر صديقه المسئول ذات مساء إلى القهوة ليعرف من عبدالحميد قطامش سر تغيب الأستاذ «د» مدة أسبوعين كاملين دون أن يترك رسالة لأحد. ولكن قطامش الذى كان يجهل هو الآخر سر غياب الأستاذ «د» برر غيابه بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه، وخطورة المهمة التى يضطلع بها الأستاذ «د» فى إدارة سياسة المجلة والإشراف على تحريرها. وأبدى ذلك المسئول اندهاشه الشديد لتصور قطامش الخاطيء. وراح يشرح لمن كانوا يحضرون الندوة تلك الليلة كيف فشل الأستاذ «د» فى كل عمل أسنده إليه. وكيف أنه لم ينجح فى كتابة موضوع واحد يصلح للنشر. لذلك عهدوا إليه بتلقى خطابات القراء وفرزها ثم توزيعها على أقسام المجلة، وأن هذا العمل فقط هو مهمة الأستاذ «د» فى المجلة التى يعمل بها. وعندما علم الأستاذ «د» أن صديقه المسئول حضر إلى قهوة عبد الله وأنه كشف سره، اختفى تماماً وظل حريصًا على أن يبقى بعيداً عن شلة أدباء قهوة عبد الله حتى مات!

ثالث الفرسان الذين اختفوا فجأة كما ظهروا فجأة، هو شاعر بقى موجوداً فى المجال الأدبى والفنى حتى مات. وهذا الأديب الشاعر هو

من شلة الشباب الذين يمثلون الجيل الثالث فى ندوة قهوة عبد الله، والتى كان من بين أعضائها الشاعر صلاح عبد الصبور والناقد رجاء النقاش والشاعر أحمد عبد المعطى حجازى. هؤلاء حضروا إلى القهوة بعد عشر سنوات من حضور الجيل الثانى الذى كان من بين أفراده حسن فؤاد ويوسف إدريس وفتحى غانم والعبد لله. ولكن هذا الشاعر لم يكن فى شعره يفصح عن أى اتجاه أو يشير إلى أى موقف ولكنه كان يقول شعراً حديثاً عن حبيبته التى ذهبت أو حبيبته التى ستعود! وكان أنور المعداوى قد تنبأ له بمستقبل طيب وسعى لنشر إنتاجه فى بعض المجلات. وذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٩٥٩ حضر إلى القهوة مساء وأعلن أنه اختير ليسافر فى بعثة إلى الاتحاد السوفيتى. وتحمس بعض الجالسين فعبروا عن سرورهم بكلمات قصيرة فى تحية ذلك الشاعر، وللمستقبل الزاهر الذى يرجونه للشاعر الشاب. كان من بين الذين تكلموا فى هذه المناسبة أنور المعداوى وزكريا الحجاوى والدكتور القط ومحمود شعبان والعبد لله. وانفعلت أكثر فنشرت الكلمات التى قيلت والمناسبة التى قيلت فيها فى مجلة روز اليوسف وتمنيت له رحلة سعيدة وإقامة طيبة فى موسكو ونجاحاً باهراً فى تحقيق الهدف الذى يرجوه. وكم كان أسفى شديداً عندما علمت أن الشاعر طاف القاهرة كلها يحمل عدد روز اليوسف صائحاً بغضب شديد مؤكداً للجميع أننى ما قصدت بهذه السطور إلا الإبلاغ عنه ولفت نظر السلطات إليه ليمنعوه من السفر إلى موسكو! فى تلك الفترة من حياة مصر كانت الحملة قد اشتدت على الاتحاد السوفيتى وضد الأفكار المتطرفة، وكان عبد الكريم قاسم قد

شرع فى خوض معركة ضد القوميين فى العراق وعلى مستوى الوطن العربى.

ونشبت معركة ضارية بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم. وبعد وقوع مذبحة الموصل قامت السلطة المصرية باعتقال ثلاثة آلاف شخص، وكان قرار الاعتقال يأمر بالقبض على «الشيوعيين والمتعاطفين معهم والذين يوجدون معهم لحظة القبض عليهم..»، وألقت السلطة القبض على لويس عوض، وكان مديراً عامًا لإدارة الثقافة بوزارة الثقافة، وعلى الدكتور عبد الرزاق حسن، وكان مستشارا اقتصاديا برئاسة الجمهورية، وكان بين المقبوض عليهم عشرات من الفنانين والصحفيين والكتاب، وبلغ عدد المقبوض عليهم من مؤسسة روز اليوسف أحد عشر شخصًا من بينهم العبد لله. وبالرغم من اتساع قرار الاعتقال إلى حد اعتقال أشخاص لم يكن لهم أدنى صلة بالحركات المتطرفة ولا بالسياسة أصلاً، إلا أن القائمة خلت من اسم ذلك الشاعر الذى أتحدث عنه، ليس هذا فقط، بل إنه بعد حركة الاعتقالات بثلاثة أشهر كاملة سافر الشاعر إلى موسكو، فى الوقت الذى كان مجرد ذكر لفظ موسكو على لسان إنسان كفيلاً بنفيه إلى الواحات الخارجة.

والعبد لله هنا يذكر حقائق ويسرد وقائع دون أن أقصد من وراء ذلك الوصول إلى نتائج أو إصدار أحكام. ولكننى فقط أردت أن أكشف عن أوهام كثيرة سادت حياتنا الثقافية والأدبية فى فترة من الفترات.

ولقد اختفى الشاعر فى موسكو سنوات طوالا. وعندما عاد لم يكف عن توزيع الاتهامات هنا وهناك على كثيرين من الكتاب الشرفاء..

وباعتباره مندوب التقدمية الأوحد. ولذلك دهشت دهشة شديدة عندما مرض الشاعر مرضًا خطيراً، وأشرف على الموت أثناء زيارة له إلى إحدى العواصم العربية، وتدخلت السلطات فى تلك العاصمة لايفاد الشاعر إلى موسكو للعلاج. غير أن الحكومة الروسية رفضت دخوله إلى أراضيها، وبدون إبداء الأسباب! ولم أربط بالطبع بين رفض الحكومة السوفيتية لعلاجه، وسفره السابق المفاجئ إلى موسكو وسط حملة عاتية أطاحت بكل الأدباء والمثقفين، وألقت بهم إلى المنافى والسجون.

المهم أن الشاعر اختفى فجأة من حياة قهوة عبد الله بسفره إلى موسكو، وعندما عاد كانت قهوة عبد الله قد اختفت من الوجود.

□□

عباقرة الوهم!

كانت قهوة عبدالله منطقة جذب شديدة، وقد ذاع صيتها فى بداية الخمسينات فجلبت أبصار الكثيرين، فهرع إليها مئات، بعضهم موهوب، وبعضهم موهوم، وكان هؤلاء الموهومون أكثر! كان أشهر موهوم من هؤلاء شاب فى الخامسة والثلاثين من عمره، تعثر فى دراسته فوصل إلى شهادة كانت موجودة آنذاك اسمها الثقافة العامة وجرب الشاب حظه فى مدرسة عليا كانت تخرج «كونستبلات» شرطة، وهى درجة شبيهة بأمين شرطة الآن! ولكنه حتى فى مدرسة «الكونستبلات» لم يصادف توفيقا، فهجر الدراسة، ووفق فى عمل بإحدى الشركات الأجنبية كمدير دعاية، ويبدو أنه صادف نجاحا فى هذا العمل، فاستقرت أحواله المادية!

وعندما أطمأن قلبه على غده، راح يمارس هوايته ككاتب قصة. ولأنه كان متأثرا بروايات السينما المصرية، فقد كانت قصصه كلها

على هذا النحو ولقد حاولت أكثر من مرة أن أقرأ له رواية كاملة ولكنى لم أوفق؛ فقد كان الكاتب أصلع العقل، وكان أسلوبه رديئا، وثقافته ضحلة، وكثيرا ما كان يخطىء فى الإملاء ولكنه استطاع بدخله الكبير أن يطبع إنتاجه الأدبى على حسابه، فى كتيبات صغيرة وأنيقة، وكان يحرص على أن يضع على الغلاف صورة لامرأة جميلة، وكان يختار عناوين رواياته شبيهة بأسماء أفلام السينما: صرخة فى الظلام، انتقام المدينة، لهيب الثأر.

وكان المؤلف إياه يتمتع بصحة جيدة وكان يميزه شارب ضخم كان يحرص على دهنه كل صباح بالجوزماتيك! وكان يحمل معه دائما حقيبة كبيرة كحقائب تلاميذ المدارس، ولكنها كانت من الجلد الفاخر وكان المؤلف إياه يبدو بشاربه الضخم وحقيبته الجلدية كأنه حلاق أفرنجى فى حى الزمالك! وكان من عادته كلما أصدر رواية جديدة من تأليفه، أن يقيم حفلا يدعو إليه عددا من صغار الأدباء، وكان يبدو سخيا فى هذه الحفلات يطعم المدعوين ويسقيهم، ثم يوزع عليهم نسخا من كتابه الجديد، بعد أن يصف كل منهم فى الإهداء الأديب الكبير والكاتب المطبوع!

فإذا انقضى شهر على هذا الحفل، دعا إلى حفل آخر أكبر ليناقش مع المدعوين روايته الأخيرة، وكان يدعو مع الأدباء الصغار بعض صغار المحررين والذين يعملون فى مجلات فنية خاصة، وكان يغدق عليهم الهدايا لكى ينشروا صورته مع خبر عن نشاطه الأدبى فى المجلة وكان

هؤلاء يتفننون فى اختلاق المناسبات التى يكتبون فيها عن الأستاذ فأحيانا هو فى طريقه إلى رحلة ليتعرف على الأدباء العالميين، وأحيانا ستترجم روايته إلى اللغة البرتغالية! وكان هو يصدق هذه الأخبار، ويحرص على الاحتفاظ بنسخة المجلة التى نشرت الخبر فى الحقيبة وكان يردد أحيانا وبصوت يحمل رنة أسف «مش عارف مين اداهم الخبر؟» ثم يخرج النسخة على الفور ويطلع عليها الآخرين!

وكنت أراه ينتحى فى ركن ببعض الكتاب الكبار، ثم يخرج محفظته ويدس أوراقا فى أيديهم، وكانت هذه السلفيات غالبا لا ترد! وكان يحلو له أحيانا الحديث عن مشروعاته الأدبية فى المستقبل، وكيف أنه أرسل عدة خطابات إلى الدكتور طه حسين والدكتور إبراهيم مدكور لمشاركته فى هذه المشروعات.

ولكنه كان يتبجح فى الحديث كلما انفرد بالشباب وبالأدباء أما فى حضرة أنور المعداوى وعبدالقادر القط فكان يلزم الصمت وكان المعداوى يحتقره ويعتبره نبتا شيطانيا، وليس له قيمة على الإطلاق وكان يقول أحيانا إن وجود هؤلاء من أسباب تدهور الحركة الثقافية فى البلاد وإنه لو كان الأمر بيده لحاكم هؤلاء على الورق الذى استهلكوه فى إصدار كتبهم! وكان يشعر هو باحتقار أنور المعداوى لإنتاجه الأدبى، فكان يجلس منطويا فى حضرته، فإذا علق فبالاستحسان الشديد لكل كلام ينطق به أنور المعداوى.

وعندما انهدمت قهوة عبدالله، انتقل الأديب الموهوم إلى قهوة فى عابدين وأنشأ فيها ندوة أطلق عليها اسمه ودعا إلى حلقته بعض

المريدين من صغار المحررين وصغار الأدباء ووجد فرصته في الندوة الجديدة فصار يؤلف نظريات ويطلق أحكاما فإذا استحسن إنتاج أحد البراعم، أشار نحوه وقال بصوت كصوت السيارة: أنت من مدرستي!!

ولكن الأيام عبست للأديب الموهوم، فجرى التأميم على الشركة التي كان يعمل بها، ثم طحنته الأيام، فلم يعد يصدر كتبا، ولم يعد يكتب روايات جديدة ثم اختفى تماما في بداية الستينات، وغاب تماما عن مقاهي ومحافل القاهرة! ولكنه قبل اختفائه كان قد أسس لنفسه مدرسة بالفعل، وكان أهم تلاميذها شاب ريفي حصل على شهادة التجارة المتوسطة، ثم جاء إلى القاهرة ولديه أحلام عريضة عن مستقبل أدبي حافل.

كان أكثر ثقافة من أستاذه، وكان قد قرأ شيئا من الشعر العربي، وحفظ أبياتا للمتنبي والبحتري وأبو تمام! وكان على إلمام بسيط بتاريخ مصر الحديث، وكان متحمسا للثورة، ويعتقد أنها قامت لتمنح الفرصة له وللكادحين من الأدباء وكان يفضل العقاد على طه حسين، ويفضل طه حسين على توفيق الحكيم، ويفضل المنفلوطي على الجميع وكان يكتب قصصا أشبه بقصص جوركي وكان أبطاله كلهم من الضائعين والصياع. ولكنه كان يكتب قصصه بلغة فصحى، وكانت سطحية وبلا عمق وتنتهي دائما بخطبة عصماء عن الفقر والفقراء!

وكان هذا الشاب وآخرون مثله ضحايا حرفة الترجمة التي نشطت في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات للأدب الروسي. وقد تصور

عديمو المواهب أن سر قوة الأدب الروسى هو اهتمامه بطبقة الفقراء والناس العاديين. وتصوروا أن الكتابة عن هؤلاء بلا فن ولا أدب، هى الطريق إلى الشهرة وإلى المجد! وكان لهؤلاء الشباب بعض العذر ففى فترة الفوران السياسى الذى شهدته مصر فى تلك الحقبة، كانت الجماعات اليسارية تتعصب لأنصارها وكانوا يقدمون هذا الأدب على غيره من الألوان الأخرى وكانوا يحتقرون أى موهبة لا يلتفت صاحبها إلى المشكلة الاجتماعية بعيون مفتوحة.

واعتبرت هذه الجماعات كتابا مثل عبدالحليم عبدالله وأمين يوسف غراب وإبراهيم الوردانى كوباء يجب مكافحته وقدموا كتاباً من أنصارهم ينحازون للفقراء ولكنهم بلا مواهب فقلدهم البعض من عديمى المواهب، وإن كانوا لا يعون المشكلة الاجتماعية، ولا يفهمون الصراع الطبقى، وبعضهم كان يحتقر طبقة العمال وهؤلاء الضحايا ساروا على الدرب فترة، ثم فتر حماسهم، فانشغلوا بأشياء أخرى فى الحياة واختفوا فى زحام الناس.

وقد رأيت بطل هذه القصة بعد ذلك بسنوات وكان يحمل معه إيصالات ويمر على البيوت لتحصيل أجر الكهرباء! ولما سألته عن نشاطه الأدبى مط شفتيه وهز رأسه ومضى!

والمرصفاوى كان واحدا من الذين استهوتهم قهوة عبدالله وسعى إليها وكان طالبا فى الأزهر ويحفظ ألفية ابن مالك، ويؤلف شعرا فخما وله رنين وليس له أى معنى، ولا يثير الإحساس فى أى نفس وكان

يعتبر نفسه واحدا من أدباء هذا الزمان وكان ينافق كبار الأدباء، ولكنه كان يهاجمهم بقسوة فى غيبتهم! وكان دائم الشكوى من الفقر والإفلاس وغدر الزمان ويعتقد أن الحظ يعانده، ويؤمن فى الوقت نفسه بأن كل صاحب موهبة منحوس ومكتوب عليه أن يعيش فى شقاء! ودائما يحمل معه كراسة من كراسات المدارس فيها قصائد من تأليفه، وكان هذا هو ديوانه الأول، وكثيرا ما عرضه على أصحاب المكتبات الفقيرة فى شوارع الجيزة الضيقة، ولم يكن يدرى أن أصحاب هذه المكتبات.. ربما أكثر منه فقرا!

ولكن يبدو أن شدة الحاجة أرغمت المرصفاوى على الاشتغال بالسياسة وكانت فرصته الذهبية فى انتخابات عام ١٩٤٩، فانضم إلى جانب مرشح سعدى وراح يلقى كل مساء قصيدة عصماء فى مدح المرشح ويبدو أن قصائد المرصفاوى كان لها تأثير فى فقدان المرشح للتأمين ولكنه مع ذلك واصل العمل كشاعر فى الحزب السعدى وظهرت نتائج هذا العمل على ملابس المرصفاوى وعلى طريقة حياته.

ويبدو أنه ارتاح لما وصل إليه فترك الدراسة بالأزهر وتفرغ تماما للعمل السياسى! وبعد إلغاء الأحزاب وحظر نشاطها، اختفى المرصفاوى تماما ولم أره بعد ذلك إلا صدفة فى بورسعيد وقد لمحته يرتدى جلبابا ممزقا وحافى القدمين، ويركب «عجلة بسكليت» ويضع على رأسه قفص عيش بلدى ويبدو أنه اشتغل عاملا فى أحد أفران المدينة!

ولكن أغرب هؤلاء الموهومين كان موظفا فى إحدى المصالح، وكان

يتقن اللغة الإنجليزية وكان يؤلف روايات جنسية ويضع لها أسماء مثيرة ويصدرها فى كتب واستطاع أن ينشر اسمه عن طريق إعلانات فى الصحف اليومية ومع الإعلان صورته، وهو يضع يده تحت خده كالشاعر شوقى بالتمام والكمال.

وصادف الكاتب حظا فى البداية فكان يحضر إلى قهوة عبدالله ويشترك أحيانا فى النقاش، وأحيانا أخرى كان يظهر فى القهوة ومعه نسخ فرنسية لروايات حديثة ظهرت هناك، ولكن لمؤلفين مغمورين، وكان على استعداد دائما لإعارة هذه الكتب لمن يريد! وكان يتصور أن إحسان عبدالقدوس لا يمتاز عنه فى شىء إلا أنه صاحب دار نشر وصحف تنشر إنتاجه، وآه لو أنه حصل على هذه الفرصة، إذن لتقدم المسيرة ووضع إحسان ويوسف السباعى فى الخلف!! وكان يعتقد بأن يوسف السباعى نجح لأنه ضابط جيش وفى السلطة! وينسب نجاح عبدالحليم عبدالله لنفوذه فى المجمع اللغوى، ويؤكد أن نجاح يوسف جوهر مرجعه إلى أنه من عائلة جوهر الثرية!!

وبعد أن انتعشت أحواله فترة، صادف المتاعب بعد ذلك. ثم قام بتمثيلية انتحار حيث ترك بعض ملابسه على شاطىء النيل وخطاب إلى من يهمه الأمر ثم سرح فترة فى شوارع القاهرة يستدين من أصدقاء الطفولة وزملاء الماضى وكان قد أصدر عشرين كتابا من هذا النوع الذى يجيد تأليفه عندما بدأ يتسكع فى الشوارع والحق أقول إن هذا الأديب الضائع وأشباهه كانوا ضحايا إحسان عبدالقدوس. لأنهم

تصوروا أن نجاح إحسان محوره الكتابة عن المرأة. ونسوا أن إحسان فنان موهوب وأنه يستخدم أدواته بحذق ويجيد أسرار صنعته ويقدمها بفن! تصوروا أن الكتابة عن عالم المرأة فقط تضمن الرواج والانتشار. ولقد حققوا الرواج والانتشار من البداية. ثم أغراهم ذلك إلى مزيد من السقوط. فانحصرت عناوين رواياتهم فى عبارات من نوع «تعالى إلى أحضانى» أو «مذكرات بنت ليل»، إلى آخر هذه العناوين التى استهوت المراهقين فترة، ثم هجروها بعد أن اكتشفوا زيفها وفقر موهبة كتابها!! وانتهى هذا الفريق كله نهايات رهيبة. وضاعوا جميعا فلم يبق من إنتاجهم «الأدبى» أى شىء!

ولكن أغرب هؤلاء الموهومين كان مصححا فى إحدى المجلات الميتة. ولأن المجلة فقيرة فكانت ترحب بنشر أحاديث للمصحح يجريها عادة مع بعض ضيوف القاهرة من الأدباء والفنانين. واستطاع عن طريق أحد هؤلاء الضيوف أن يحصل على عقد عمل فى مجلة تصدر فى بلد شقيق. وكان ذلك فى بداية الستينات، واستطاع أن يثبت مكانه هناك بالقليل الذى كان يعرفه عن مهنة الصحافة!

وعن طريق معارفه فى القاهرة استطاع أن يربط به عددا من الأدباء المتوسطين، واستطاع أن يحصل على رضاهم بنشر إنتاجهم فى المجلة التى يعمل بها ولذلك كنت ترى اسمه أحيانا بين الكتاب الذين يستشهد بهم هؤلاء الأدباء فى كتاباتهم واستطاع أيضا أن ينشر بعض إنتاجه الأدبى فى دور نشر بالقاهرة مقابل شراء نسخ من كتبه بعملة

البلد الذى يعمل فيه ولكنه فجأة ترك العمل فى المجلة وانضم لأحد الزعماء هناك، فلما وصل الزعيم إلى الحكم جره معه فصار مديرا لمكتبه وحصل على جنسية البلد الشقيق وصار من رجال السلطة، ونسى الأدب، واعتبره مجرد خطوة على طريق المجد الذى وصل إليه!!

ولكن مهدى كان أكثر هؤلاء الموهومين شفافية وحساسية.. ولذلك انتهى النهاية التى كان لابد أن ينتهى إليها فقد جره أحد أعلام قهوة عبدالله ذات مساء وكان شابا حديث التخرج من كلية الحقوق يمتلىء صحة وحيوية وكان يجيد الترجمة، ولديه قدرة على الإبداع أحيانا ولكنه كان بطيئا يرى أن الحياة جديرة بأن يحياها الإنسان دون أن يبذل جهدا كبيرا! ولذلك فصلته جميع دور النشر التى اشتغل بها لأنه كان لا يرى سببا واحدا للعجلة، كما كان يؤمن بأن الصبر مفتاح الفرج! ولكن صبره طال دون أن يصادف أى فرج على الإطلاق اللهم إلا عم فرج صاحب المطعم الذى كان يتعامل معه على الحساب.

وكان أكولا تراكمت عليه الديون فى المطعم فتوقف عن إطعامه وكان حينئذ يضطر إلى ترجمة بعض الكتب وبيعها لآخرين لإصدارها فى دوريات شهرية بأسمائهم وعندما كانت تلح عليه الظروف، كان يترجم الكتاب فى ساعات قليلة وهو جالس على المقهى ولكنه كان يتوقف تماما عن أى عمل ما دام فى جيبه شىء من النقود ثم توالت عليه المصائب إلى درجة أنه باع بعض ملابسه.

ثم اضطر للتجوال فى القاهرة ببنطلون بيجامة وجاكتة قديمة واستأجر دكان مكوجى بالجيزة لينام فيه ليلا وبعد انتهاء العمل وكان

يضطر للسهر على المقهى فى ليالى العيد لأن المكوجى لا يغلق بابه فى تلك الليلة!

ثم مات مهدى فجأة بعد مرض خاطف لم يمهله إلا قليلا ولم يعرف بموته أحد إلا بعد دفنه بعدة أسابيع.

وكثيرون آخرون من هذا الصنف الموهوم مروا على قهوة محمد عبدالله ولكن مرور الكرام، وكانوا كالطيف أو كالضيف لم يلبثوا كثيرا جذبتهم الأضواء فترة ثم خطفتهم مشاغل الحياة فودعوا أحلامهم ودفنوا طموحهم وساروا فى الطابور الطويل وانتهى أمرهم.

ولكن لاشك أن قهوة عبدالله كانت بمثابة معمل اختبار لكل النماذج التى خفق قلبها يوما بحب الأدب وراودتهم أحلام الشهرة والانتشار. أما أصحاب المواهب الحقيقية فقد مكثوا فى الأرض. أما أصحاب المواهم فقد ذهبوا فى القازوزة وابتلعتهم دوامة الحياة. ولكن حتى هؤلاء كانوا أسعد حظا من غيرهم من أصحاب المواهم لأن بعض أصحاب المواهم أدركوا بعد فترة أنهم يسبحون ضد التيار فأقلعوا عن السباحة ولجأوا إلى البر ولكن بعضهم ركبه العند فتصور أن هناك مؤامرة محلية ضد موهبته، والبعض الآخر تصور أن هناك مؤامرة دولية لقتل هذه الموهبة لأن نموها وتفجرها كفيل بتغيير الحياة!!

من هؤلاء نموذج كان والده عسكرى فى مصلحة السجون وكان ثوريا لا يتنازل ولا يقبل أى عذر. وكان يرى أن الحل الوحيد هو إشعال النار فى أركان العالم الأربعة، وقتل كل أصحاب الأرض، وكل أصحاب

الفلوس، وكل ذوى المرتبات العالية، وكل المشهورين فى كل فن، وكل صاحب شركة أو دكان، وكان يعتبر أصحاب الدكاكين هم سبب البلاء على هذه الأرض.

أما الأدب فقد كان فى رأيه أنه السلاح الوحيد القادر على إشعال نار الثورة. ولذلك كان يحتقر كل الأدباء وكل الشعراء، وكان يرى أنهم سبب كل المصائب والنوائب التى حلت بالبشر! ، وكان يخص أدباء قهوة عبدالله بالذات باحتقار خاص، ولكنه كان يضمر هذا الشعور لاعتقاده أنهم كانوا عقبة على طريق النشر والوصول إلى الجماهير. وكان يرى أن الأدب الحقيقى هو الأدب المباشر الذى يدعو إلى الثورة! وكان زكريا الحجاوى يصف ما يكتبه «بالمنشورات»!

ولكنه قبل أن ينشر أو يشتهر ذهب إلى السجن فى حملة اعتقال طائشة عصفت بالكثيرين. وعندما خرج من السجن كانت قهوة عبدالله قد أزيلت من مكانها، فانتقل إلى قهوة أخرى داخل حوارى الجيزة، وأعلن من هناك قيام «الثورة الشاملة»! وعندما ترك كثيرون من أعضاء التنظيمات اليسارية تنظيماتهم وانضموا إلى تنظيم عبدالناصر، أعلن أن هؤلاء خونة أسفروا عن وجوههم!

وأصدر كتيبا صغيرا اتهم فيه عبدالناصر بأنه عميل المخابرات المركزية الأمريكية. وحدد رقمه كعميل فى إدارة المخابرات، ودعا جميع الثوريين إلى حمل السلاح لإسقاط عبدالناصر الأمريكى!!

وفى نهاية الستينات ألقى القبض عليه فى قضية سياسية، وبقى فى السجن حتى أفرج عنه فى يوليو عام ١٩٧١ ، واستطاع بعد قليل أن يجد

لنفسه عملا فى إحدى المؤسسات الصحفية، وأعلن أن اشتراكه فى هذه المؤسسة هو إجراء تكتيكى للوصول إلى الهدف المنشود! ولكن يبدو أن الأخ الثورى قد استكان للحل التكتيكى، فاختفى تماما من الجيزة، ولم يعد أحد من شلة القهوة يراه.

ولكنه سرعان ما عاد إلى الظهور من جديد، مسئولا للدعاية عن إحدى شركات الانفتاح . وهى لم تكن شركة بالمعنى المفهوم، ولكنها كانت عملية تهريب انتهز أصحابها فرصة ما أسموه بالانفتاح.

ويبدو أن صاحبنا الثورى قد تطورت أعماله بشكل كبير، فاقتنى سيارة مرسيدى (خنزيرة) وسكن فى بيت على النيل، واشترى قطعة أرض على ترعة المنصورية، واشترى عدة شقق صغيرة فى شارع فيصل وشارع الهرم باعتبار (أهى تنفع)، ولكنه وسط انشغاله بعمليات البيع والشراء نشر بحثا سياسيا فى كتاب أعلن فيه أن عبدالناصر لم يكن اشتراكيا ولكنه كان مجرد دكتاتور اختفى تحت شعار كاذب هو الاشتراكية، وأن السادات هو الممثل الحقيقى للطبقة الرأسمالية، ولذلك يسمح لممثلى الطبقات الأخرى بالوجود على الساحة، ودعا جميع الاشتراكيين الحقيقيين للاستفادة من فترة الانفتاح لتحقيق الثراء تحسبا للأيام الصعبة وللجهاد المنتظر بعد فترة السادات!

ويبدو أنه لم يكن الوحيد الذى اقتنع بهذا المنطق، ولكن يبدو أنه كان أكثرهم حذقا وشطارة. فسرعان ما استقل عن زملائه فى العمل، وانفرد بشركة انفتاحية ومد نشاطه إلى إسرائيل. وكان يعلن دائما فى مجالسه

الخاصة أنه على جميع الثوريين أن يوجدوا فى اسرائيل، ويعمقوا صلاتهم بها لمعرفة ما يدور داخلها، وللوقوف على نواياها الحقيقية.

ولكنه بعد مقتل السادات هاجر من مصر ونقل نشاطه إلى دولة أوروبية، وافتتح لنفسه مكتبا وبدأ التعامل مع الخليج. ولأن كل شيء ينسى في بلادنا بعد حين، فقد أعلن رجل الأعمال الثورى أن الاشتراكية لم تستطع حل مشاكل البشر، وأن الرأسمالية انتهى زمنها، وأنه على الثوريين الحقيقيين أن يبحثوا عن نظرية جديدة تصلح لعلاج مشكلات البشر، ثم أعلن أنه عاكف فى الوقت الحاضر على وضع أسس النظرية الجديدة، وإن كان هذا لم يمنعه من شراء عدة بيوت فى ضواحى لندن، وعدة مكاتب فى لندن نفسها.

وما أكثر عينات البشر التى مرت على قهوة عبدالله، لقد كانت بحق أشبه بميناء كبير. يتردد عليه الركاب وأصحاب المصالح والشيالون والنشالون والمودعون والمستقبلون، كلهم يلتقون على رصيف المقهى أو الميناء فترة ثم يفترقون. ولكن تمتاز قهوة عبدالله عن الميناء بأن الذين التقوا عليها كانوا من نوعيات خاصة، وكان لديهم أحلام وطموحات كبيرة، ولكن لأن أقدارنا ليست بأيدينا يا نهر البنفسج - على رأى زكريا الحجاوى - فقد اختلفت الحظوظ والأقدار عند نهاية الطريق.

بداية ونهاية

قهوة محمد عبدالله كانت تتوسط ميدان الجيزة فى عصره الذهبى الذى كان.

كان الميدان وقتئذ فسيحا تتناثر على جانبيه مساحات من الأرض الفضاء قامت عليها ناطحات السحاب وأطبقت على الميدان وخنقت أنفاسه. وكانت القهوة تحتل ناصية هامة للغاية، ويتفرع على جانبيها شارعان من أهم شوارع الجيزة وأقدمها، شارع سعد وشارع عباس. وكان للقهوة ثلاثة أبواب فسيحة مفتوحة على الميدان، وباب جانبى مفتوح على شارع عباس، وكانت كراسى القهوةتتناثر على رصيف الميدان وتطل عليه، وتصبح الجلسة على رصيف المقهى جزءا من جغرافية الميدان. وكان المعلم محمد عبدالله يتخذ لنفسه محلا مختارا داخل المقهى وإلى جوار «النصبة» حيث يتم إعداد الشاى والقهوة وغيرهما من الطلبات، وكان اختياره للمكان نتيجة

دراسة جدوى ، لأنه كان من مجلسه يراقب عامل المقهى، كما أن المارة فى الميدان كان باستطاعتهم أن يشاهدوا المعلم محمد عبدالله ومن أى زاوية من زوايا الميدان. كان المعلم محمد عبدالله رجلا سمينا ممتلئا، ليس بالقصير ولا بالطويل. ولكن أكتافه كانت عريضة، وصدره بارزا، وشاربه يغطى مساحة كبيرة من وجهه، وكان متجهما على الدوام، لم أضبطه مرة واحدة فى حالة ابتسام، وكان فى حالة استنفار على الدوام، إذا تسلل إلى المقهى مواطن عطشان يريد أن يشرب ماء مثلجا نهره المعلم بالحسنى أولا ثم بطريقة أخرى إذا لزم الأمر. أما إذا تهجم بائع سريح أو صباغ أحذية ودخل المقهى فليس أمام المعلم إلا طريقة واحدة للتعامل مع هؤلاء، فقد كان يقذفهم بما يتيسر من أدوات تحت يده: كوب شاى ساخن أو فردة حذاء! ولذلك كانت قهوة عبدالله آمنة تماما، وحدودها محترمة. ولم يشاهد أحد من غير زبائنها يشرب من مياهها، ولم يسمح لأحد من صباغى الأحذية باختراق حدودها إلا الولد «بحبح» فهو الوحيد الذى كان مسموحا له بهذا الشرف الرفيع!

وكان «بحبح» شهيرا فى الجيزة، فقد كان فى مواجهة قهوة عبدالله استديو للتصوير السينمائى، هو استديو «توجو مزراحى»، وهو يهودى مصرى اشتغل بالإخراج السينمائى وأخرج خمسين فيلما مصريا على الأقل ثم هرب من مصر بعد حرب فلسطين ولم يسمع عنه أحد شيئا بعد ذلك. وكان «بحبح» يقوم أحيانا بأدوار ثانوية صغيرة فى الأفلام، وفى فيلم «على بابا والأربعين حرامى» قام بدور حرامى، واستغرق ظهوره على الشاشة دقيقة كاملة ومن يومها اعتبر «بحبح» نفسه نجما سينمائيا، وكان يتعامل مع الجميع على هذا الأساس!

وكان للمعلم محمد عبدالله أبناء كثيرون كلهم لهم نفس الهيئة ونفس السحنة ونفس التكشيرة التى تخيف الطير السارح فى فضاء الله. ولكن حسن كان أضخم من والده وأقوى. وكان محترف خناقات ولكن فى غيبة أبيه! وكان أحمد هو الابن الأكبر للمعلم محمد عبدالله، وكان أقصر من أبيه وإن كان يتمتع بكل صفاته الأخرى: النظرة الميتة، والقبضة الحديدية، وعدم الاهتمام بأى شىء فى الحياة إلا القهوة والزبائن والطلبات.

الرجل الوحيد الذى خرج عن القاعدة العامة المعمول بها فى القهوة هو الجرسون. فقد عمل فى شبابه مع خواجات من بلاد اليونان، وشرب منهم أسرار الصنعة وقلدهم حتى فى النداء على الطلبات! فقد كان يطلب الشاى والقهوة بأسمائها الأفرنجية وبشكل مختلف عما اعتاده الناس فى قهاوى حى الجيزة الشعبى العريق. وكانت ملابسه دائما نظيفة، وشعره دائما لامعا، حتى بعد أن تآكل من الوسط ظل حريصا على تصفيفه، وتلميعه لكى يبدو فى الهيئة اللائقة على الدوام! وكان يتمتع بكياسة وذوق ومشاعر رقيقة وكأنه أحد شعراء العصر الفيكتورى الزاهر. وكان يعرف قدر الأدباء ويكن لهم احتراما شديدا، ولذلك كان يلبى طلباتهم دون أن يصر على تقاضى الأجر، وأحيانا كان يقرضهم بعض النقود إذا كانوا فى حاجة إليها، وبعضهم مات دون أن يسدد ديونه! وكان هذا الجرسون الطيب رغم فقره وضنكه حريصا أشد الحرص على تعليم ابنه الأكبر، وقد حصل الولد على شهادته الجامعية وحقق حلم أبيه، وحقق الولد لنفسه وضعا اجتماعيا جديدا، ولكنه لم يمد

يد المساعدة إلى والده الذى حرم على نفسه كل متع الحياة من أجل تعليمه، ومات الجرسون الطيب حزينا وعانى شظف العيش والحاجة فى نهاية حياته، بينما كان ولده ينعم بحياة ميسورة فى شقته بحى الدقى دون أن يكلف نفسه عناء السؤال عن أحوال الوالد المريض!

ولعل هذا السلوك من جانب الولد كان أحد الأسباب التى قصمت ظهر الجرسون الطيب وعجلت بوفاته، ولقد أسعدنى الحظ بالاشتراك فى جنازته، وابتهجت كثيراً عندما لمحت بين الأعداد القليلة التى حضرت الجنازة «بحبح» والمعلم أحمد الابن الأكبر للمعلم محمد عبدالله.

كانت هذه هى شخصيات القهوة: المعلم عبدالله وولداه والجرسون الطيب وبحبح صباغ الأخذية وعبادة المجنون، وقد أفردنا له فصلا خاصا به فى بداية هذا الكتاب.

وقصة محمد عبدالله قصة تتكرر كثيرا فى حياة أبناء الصعيد، يهاجر الواحد منهم إلى القاهرة وليس معه إلا ثمن تذكرة القطار، وبعضهم كان يحضر إلى القاهرة فى مركب شراعى، ثم يدخل السوق ليتاجر فى أى شىء ، وبعد دورة زمن يستقر فى مكان، ويبدأ حياة جديدة وطورا جديدا يختلف كل الاختلاف عن المرحلة التى سبقت. كثيرون من هؤلاء حققوا الكثير، ووصلوا إلى قمة السلم الاجتماعى وأصبح بعضهم من أصحاب الملايين ومن أصحاب النفوذ أيضاً، ولكن محمد عبدالله لم يكن طموحا إلى الحد الذى يرفعه إلى هذه المكانة، فقد كان يطمع فى الستر. ولابد أنه حقق كل أهدافه عندما صار

صاحب قهوة وفى أبرز مكان فى الجيزة. ولم يحاول مرة واحدة تطوير القهوة أو حتى تجديدها. إن الكراسى بقيت كما هى، فلما تكسرت وتحطمت كان يكتفى بركنها داخل المقهى، حتى الجدران التى تشققت واتسخت وتداعت بعض أجزائها لم يفكر مرة واحدة فى ترميمها أو طلائها، ولكنه ترك كل شىء يسير فى طريقه حسب ما هو مقدر، ووفق ما هو مكتوب له فى اللوح المحفوظ، ولم يكن يعرف هؤلاء الذين اختاروا قهوة عبدالله ندوة أدبية لهم. ولكنه كان يخشى نفوذهم، فهو يرى صورهم فى الجرائد ويستمع إلى أصواتهم فى الراديو، وكان أغلب الظن يتصور أنهم فى مناصب كبرى: ضباط مباحث ربما أو مفتشين فى الرى أو من رجال التموين! وذات مرة سألنى: هوه أنور أفندى المعداوى بيشتغل إيه بالضبط؟ فلما أجبته بأنه أديب، عاد يسألنى: يعنى بيعمل إيه؟ وقلت له: بيعمل أدب، فعاد يسأل وإيه هوه الأدب؟ وبعد فترة صمت قصيرة قلت له:.. الأدب هو كل كلام لا تفهمه.. ! وهز عم محمد عبدالله رأسه.. ولكنى أعتقد أنه لم يفهم، فلم يكن لديه الاستعداد ولم يكن راغبا فى ذلك!

وإذا كانت كل نظريات علم الاجتماع تؤكد أن الإنسان مدنى بالطبع، إلا أن عم محمد عبدالله أثبت فساد هذه النظرية وعدم صحتها، فلم أشاهده مرة واحدة يتحدث مع أحد، ولم أسمع صوته إلا فى مشاجرة ولم أشاهد له حركة إلا فى خناقة حامية الوطيس تسيل فيها الدماء. لم يكن يكلم حتى أبناءه، وكان إذا اقترب من القهوة فى الصباح، وقف أولاده وقفة عسكرية وقد ارتسم الذعر الشديد على

وجوههم، وكانوا يؤدون أعمالا شاقة فى القهوة وبأقل أجر. فإذا أكل جلس على المائدة وحده بينما أولاده يختلسون إليه النظرات من بعيد ، فإذا انتهى من طعامه ترك لهم بقاياه، وكانوا لايستطيعون الاقتراب من المائدة إلا بعد أن يغسل المعلم يديه ويجلس فى مكانه المعتاد لشرب الشاى. ولم يكن له مزاج خاص فى المأكل أو فى المشرب، فكان يشرب من نفس الشاى الذى يشرب منه الزبائن وكان يأكل أى شىء يقدم إليه، وأغلب طعامه كان جبنة قديمة وخيارا أخضر وبعض المخللات، وكان يأكل اللحم بين الحين والحين، وعندئذ كان يختفى داخل «النصبة» حيث لا يراه أحد. ولم أشاهده فى حياتى يشترى شيئا لنفسه، ولكنه كان أحيانا يذهب لشراء لوازم القهوة من تاجر جملة فى «بين الصورين». وكان رأسه كبيرا وصلبا، وكان إذا ضرب أحد الناس برأسه ألقاه على الأرض بلا حراك.

وكان أبناؤه ينظرون إليه على أنه بطل تاريخ، ولذلك ظلوا يدورون فى فلكه ولم يتمكن أحد منهم أن يغير مساره ويتخذ لنفسه مدارا خاصا به. ولقد مات ابنه حسَن قتيلا فى معركة مع بعض الصعايدة الذين اتخذوا من رصيف القهوة مقرا لبيع الفواكه، ولأن حسن كان قويا وكان مفتونا بعضلاته، فقد خاض المعركة وحيدا ضد مجموعة من أبناء «الكوامل»، وهى قبيلة عربية اشتهرت بالشجاعة والعنف وأقامت منذ الفتح الإسلامى فى أقاصى الصعيد. وبالرغم من أنه صمد فى المعركة إلا أنه تلقى فى النهاية عصا غليظة على أم رأسه أفقدته النطق وأصابته بالشلل وكانت السبب المباشر فى وفاته بعد ذلك بأسابيع! ومع

ذلك لم يظهر عم محمد عبدالله حزنه ولم يجعل أحدا يشعر بأنه فقد شيئا يمكن أن يأسف عليه. وظل وجهه يحمل نفس المعالم ونفس التعبيرات، وربما شعر فى قرارة نفسه ببعض الارتياح لأن حسن كان قد تعود فى السنوات الأخيرة أن يختلس شيئاً لنفسه من إيراد القهوة!

وأخيرا قدر للقهوة أن تموت عندما هدموا العمارة، ولكنها كانت قد ماتت قبل ذلك، ماتت بالبلاجرا وسوء التأثيث وسوء الصيانة وسوء الرعاية، ولذلك لم تكن وفاتها مفاجأة إلا للمعلم محمد عبدالله نفسه الذى انزوى بعد ذلك فى بيته. ولكن فترة الانزواء لم تدم. فسرعان ما فقد شهيته للطعام، وفقد رغبته فى الحياة ثم أسلم الروح فى هدوء.. ومات! وعبثا حاول الابن الأكبر أن يلعب دور والده دون جدوى. استأجر قهوة قريبة من الميدان واتصل ببعض الأدباء ليعيد مسيرة قهوة عبدالله، ولكن القهوة ماتت بعد أشهر من افتتاحها. وعاود الكرة من جديد ولكنه فشل. وتكرر فشله بعد ذلك عدة مرات، ثم ضاع فى الحياة، ومات ولم يبلغ الخمسين.

رحم الله المعلم عبدالله. كان فى جلسته المعتادة خلف مكتبه الحقير داخل المقهى أشبه بأسد هارب من حديقة الحيوان. ولم أصادف فى حياتى رجلا استغنى عن الحياة وعن الأحياء كما محمد عبدالله، وأثبت أن الإنسان يمكن أن يكون مدنيا أحيانا ووحشيا إذا لزم الأمر!

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/١١٠٦٥

I.S.B.N 977 - 01 - 6382 - 1



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل ـ للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩

١٢٥ قرشاً